عبد الوهاب مطاوع

صديقي ما أعظمك



دار الشروق

صديقي
ما أعظمك

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م
الطبعة الثانية
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م
الطبعة الثالثة
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م
الطبعة الرابعة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

عبد الوهاب مطاوع



دار الشروق

الغلاف للفنان مصطفى حسين

مانجريا !!

كنّا شبابًا ، وكانت أوروبا بالنسبة لنا حلمًا يداعب خيالنا تغذيه مقالات وكتب كبار الكتاب الذين أحببناهم وقرأنا خواطرهم وذكرياتهم عنها ، ثم جاءت الفرصة حين فتح باب السفر للخارج فى أواخر الستينيات ، واندفع الشباب يسافرون إلى ألمانيا وايطاليا بالذات فيتصعلكون فى شوارعها ويشترى بعضهم سيارات قديمة يقودونها إلى فينيسيا ويركبون معها الباخرة المصرية إلى الإسكندرية . وأغرتنى التجربة أن أصنع مثلهم تحركنى الرغبة فى التعرف على أوروبا أكثر منها الرغبة فى اقتناء سيارة وكان صديقى حسين قد عاد قبلها بأسابيع من رحلة مماثلة بسيارة إيطالية ويستعد للقيام برحلة أخرى يشترى فيها سيارة جديدة ليبيعها ويحقق ربحًا يدفع منه جمارك السيارة الأولى ، وقررت أن أسافر معه وجمعت كل ما أستطيع جمعه من نقود وركبت معه الباخرة «سوريا» من الإسكندرية إلى إيطاليا ، ولأنى أحترم الخبرة دائمًا فلقد أسلمت قيادى فى كل أمور الرحلة لصديقى حسين وأعتبرت ارشاداته قرارات غير قابلة للمراجعة . ولم لا أليس

خبيرًا بالحضارة الأوروبية وسافر من قبل إلى أوروبا ، وأنا لم أسافر إليها بعد ؟

ووصلت الباخرة بعد ٥ أيام إلى فينيسيا فبهرنى منظرها والبحر الذى يخترق شوارعها ، وكدت أنسى هدف الرحلة وطلبت من صديقى أن نصرف نظرًا عن حكاية السيارات ونمضى أيامنا فى هذه المدينة الجميلة ونستمتع بالحياة فيها ، لكن صديقى الحازم الذى يعرف عنى مثل هذه النزوات حسم الأمر وجذبنى بعنف إلى محطة السكة الحديد لنركب القطار إلى ميلانو مطمئنًا إياى بأننا سنعود إلى فينيسيا مرة أخرى بعد أسبوع لنركب الباخرة ، وسأجد عندها وقتًا كافيًا لتأملاتى فى جمالها . وحملنا القطار إلى ميلانو فاكتشفت أنها مدينة صناعية كئيبة ليس فيها ما يغرى سائحًا بزيارتها ، لكن صديقى كانت له حساباته الدقيقة فهى أقرب إلى فينيسيا وبها سوق للسيارات المستعملة اشترى منها سيارته الأولى ، فقادنى إلى نفس الفندق الذى أقام به ، وأصطحبنى فى الصباح إلى سوق السيارات ، وبدأ ممارسة سلطاته فطفنا بكل السيارات نتفرج عليها ونراجع أسعارها .. ويكتب صديقى المنظم أسعارها فى أوراقه ، وانتهى اليوم وعدنا للفندق وبعد قليل دعانى لغرفته فوجدت على المائدة أمامه كومة كبيرة من الأوراق مليئة بعمليات الجمع والطرح والضرب وسألنى عما معى بدقة من دولارات لكى يجرى حساباته ، فصارحته بما معى على وجه التحديد ، فانهمك مرة أخرى فى الجمع والطرح . وتكررت نفس العملية فى اليومين التاليين ، ثم استقر رأيه على شراء ٣ سيارات بدلاً من سيارتين .. اثنتان له لأنه رأى

سيارة عتيقة سعرها زهيد جدًا فقرر شراءها بالإضافة إلى السيارة الأصلية ليزداد ربحه من العملية . وتوجست شرًّا من هذه السيارة الإضافية .. ونقلت إليه مخاوفى من إنها ستحملنا أعباء جديدة .. لكنه أكد لى أن الأمر تحت سيطرته تمامًا ولن يتطلب سوى استئجار سائق ايطالى لنقلها إلى فينيسيا ، وواصل حساباته وكان من عادته أن يجمع ويطرح بصوت مسموع ، فتنبهت فجأة إلى أنه يضيف كل ما سوف يتبقى معى من نقود بعد دفع ثمن السيارة وأجر الفندق ، إلى ما معه هو من نقود فيصبح المجموع كذا وبالتالى يمكن شراء سيارتين له بدلاً من واحدة ! .

وحاولت لفت نظره بهدوء إلى أنه قد نسى مسألة هامة فى حساباته هى مسألة «المانجريا» أى الطعام باللغة الايطالية وما سوف نحتاج إليه من نفقات للطعام والإقامة بعد دفع أثمان السيارات وأننا فى بلاد غريبة ولن نجد من يقرضنا ولا من يدعونا إلى وجبة من «المستكة» ، أى من اللحم بالإيطالية ، وهو المغرم بأكل المستكة كل يوم لهذا فإنى أرى من الحكمة أن يصرف النظر عن السيارة الإضافية ليتبقى معه ومعى ما يكفل لنا الحياة الكريمة فى باقى أيام الرحلة ، لكن صديقى سيطرت عليه فكرة السيارة الزائدة ولم تنجح معه محاولاتى ، وسألنى معاتبًا ألسنا معًا فى الخير والشر فاندفعت أؤمن على كلامه فبسط يده طالبًا النقود فقدمتها له صامتًا . واشترينا السيارات وتحركنا بها من ميلانو إلى فينيسيا ـ وحدث ما توقعته فتعطلت السيارة القديمة فى الطريق وفشلنا فى محاولات إصلاحها بعد ساعات فتركناها ووصلنا إلى فينيسيا بعد رحيل

الباخرة المصرية بساعة . وأصبح علينا أن نواجه الحياة فى المدينة العائمة لمدة أسبوع كامل بلا نقود للفندق أو الطعام . وكان صديقى الخبير قد اشترى لكل منا قبل أن نبدأ السفر من ميلانو كرة كبيرة من أرخص أنواع الجبن الايطالى لتغنينا عن وجبة الغداء التى لم نعد قادرين على تكاليفها بعد نكبة السيارة فأمضينا ساعات السفر نقرض فيها كالفئران ، وعجز ما تبقى معنا بعد وصولنا عن أن يوفر لنا سريرًا فى أرخص بنسيون فى فينيسيا فقرر القائد أن نبيت فى السيارتين فكانت ليلة سوداء لم يغمض لى فيها جفن وفى الصباح خلعت ساعتى وأخرجت ولاعتى وبضع عشرات من الجنيهات المصرية كنت أحتفظ بها للإنفاق منها فى ميناء الإسكندرية بعد العودة ، واستحلفته بخبرته ودرايته بأوروبا أن يجد مشتريًا لهذه الأشياء لنجد ما ندفعه لأرخص بنسيون فى المدينة مقابل النوم فقط ، ولو أمضينا الأيام الباقية فى نحت كور الجبن ، فاستثارت كلماتى حماسه ونهض من فراشه ـ أقصد سيارته ـ نشيطًا وقادنى إلى حوارى ودروب فينيسيا بحثًا عن شخص مصرى مقيم فيها منذ سنوات حتى عثر عليه بعد عذاب وباع له النقود المصرية بنصف قيمتها والساعة والولاعة بعشر قيمتهما ، ودلنا المصرى على بنسيون رخيص نقلنا إليه حقائبنا ودفعنا له أجر الإقامة لمدة ٦ أيام مقدمًا فلم يبق معنا بعده ما يكفى إلا لشراء كور الجبن التى يشبه طعمها صابون الغسيل ، ونمت فلم أشعر بالدنيا وبحثت عن صديقى فى الصباح فوجدته عائدًا من الخارج بعد أن اتفق مع طالبين مصريين من أصحاب السيارات المنتظرين للباخرة على قطر سيارته المعطلة بالحبال

من الطريق السريع إلى فينيسيا ولم ينس أن يرشح سيارتى بالذات لهذه المهمة المقدسة لأنها فى رأيه أقوى وقطرناها فعلاً إلى الميناء واستراح وأصبح علينا بعد ذلك أن نواجه الفراغ وقلة الشىء لمدة ٦ أيام كاملة فى المدينة العائـمة ، وبعد ساعات كنت قد تكيفت مع واقعى الجديد فانطلقت استمتع «شفويًا» بالحياة فى فينيسيا وأتفرج على قواربها التى تـمثل شريان مواصلاتها الرئيسية .. واستمتع برؤية قارب الجندول الأسود الشهير وهو يحمل السياح الأمريكيين وقائده الايطالى يغنى لهم على الجيتار مقاطع من الأوبرات العالمية .. وأمضى الساعات جالسًا على سلالم محطة السكة الحديد بين مجموعات الشباب من كل أنحاء العالم .. أو واقفًا فى ميدان سان مارك الشهير الذى يحج إليه السياح من كل مكان وكلما قرصنى الجوع أخرجت كرة الجبن وأنشبت فيها أنيابى ، ورغم كل شىء فلقد تمتعت بالانطلاق على سجيتى لمدة أسبوع فى هذه المدينة السعيدة ، ونسيت كل شىء فلم أعد أذكر سوى رغبتى فى التفرج على الكنائس والنافورات والقصور الأثرية .

أما صديقى حسين فلقد شق عليه وهو المغرم بالأكل الحرمان من أطباق المكرونة الأسباجيتى وقطع اللحم العائـمة فى الصلصة النابوليتانية طوال هذه الأيام حتى بدأ يهزل ويصفر وجهه ويكتئب يومًا بعد يوم وفى الساعات الأخيرة لنا فى فينيسيا وصل إلى مرحلة الهذيان وعندما وصلت الباخرة المصرية إلى الميناء وتم رفع السيارات إليها وقفنا فى الطابور ننتظر دورنا لدخولها والمصريون العائدون من حولنا يتبادلون عبارات الشوق إلى مصر ، وتتردد حولنا فى كل لحظة عبارة : عمار

يا مصر همس صديق بكلمات مبهمة لم أسمعها بوضوح فسألته ماذا يقول : فأجابنى بصوت مبحوح وهو ينظر إلى الأمام شاردًا : نفسى فى المستكة !.

صديقى .. ما أعظمك !

كنا ثلاثة من الأصدقاء تجمعنا كلية واحدة وهواية الأدب وحسن الظن بأنفسنا كعادة غيرنا فى مثل هذه السن ، وكان من بين هواياتنا الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيك فى حفلات أوركسترا القاهرة السيمفونى صباح كل يوم جمعة ، وكان أوركسترا القاهرة فى شبابنا يقدم حفلات صباحية فى دار الأوبرا كل أسبوع للطلبة بأسعار رمزية فندخلها بقروش ونحلق فى سماوات الخيال مع أنغام الموسيقى ونظل طوال الأسبوع نتحدث عنها ونسترجعها ونستعيد صورة المايسترو اليوجسلافى العظيم فرانز ليتشاور وحركاته وإيماءاته وانحناءاته أمام الجمهور ... وبعد عدة أسابيع من مواظبتنا على حضور هذه الحفلات اعتبرنا أنفسنا خبراء بالموسيقى واستشعرنا نوعًا من الاستعلاء الثقافى المزيف فأصبحنا نملأ أفواهنا بالحديث عن موزار وفاجنر وفيفالدى وباخ وهاندل وبيتهوفن ، وندعى القدرة على تمييز موسيقى كل منهم ... ونجلس فى قاعة الأوبرا متحفزين لأى صوت يصدر من المستمعين لنسكته بأنفة ثقافية تليق بالمقام ونتربص بعنف بمن يخطئون ويهمُّون بالتصفيق فى فترات الصمت بين حركات السيمفونية التى ينبغى ألا يتخللها أى تصفيق مع

أننا وقعنا فى نفس المطب مرارًا فى بداية حضورنا للحفلات فكان الحاضرون أكثر رفقًا بنا ... ولفتوا أنظارنا برقة إلى ضرورة الانتظار حتى ينتهى عزف السيمفونية كلها ثم نبدأ فى التصفيق مع الآخرين وفى هذه الفترة من العمر كانت أغانى عبد الحليم حافظ العاطفية ترطب حياتنا ولم نكن نرى بأسًا فى مشاركة الآخرين اهتمامهم بها رغم تميزنا الموسيقى ! فكنا نترنم بها ونتبادل الإعجاب بأصواتنا «الرقيقة» ! ثم حدث أن نظمت كليتنا حفلها الغنائى السنوى ودعينا بما لنا من «خبرة» فنية للاشتراك فى ترتيب فقرات الحفل فتقبلنا المسئولية بتواضع وانهمكنا فى التنظيم وراء الكواليس ، وتوالت فقرات الحفل حتى جاء دور مطرب شاب كان فى بداية شهرته وقتها ، ووجدنا أنفسنا أمام أزمة طارئة فلقد جاء المطرب الشاب ومعه ٥ عازفين من فرقة شهيرة أراد أن يضمهم للفرقة الموسيقية التى تقدم فقرات الحفل فاعتبر عازفوها ذلك إهانة لقدراتهم ورفضوا وانسحبوا إلى الكواليس ... وسألنا المطرب الشاب باشفاق ماذا ستفعل يا أستاذ فقال باستهانة : لا يهمنى سأغنى بمصاحبة هؤلاء العازفين الخمسة فقط فأعجبنا بشجاعته وشددنا أزره فإذا به يفاجئنا بطلب غريب هو أن نسانده بترديد مقاطع أغانيه وراءه على المسرح ! وألجمتنا المفاجأة فلم نتكلم واعتبر هو الصمت علامة الرضا فدخل إلى المسرح وعزفت الفرقة المقدمة الموسيقية والتفت إلينا يدعونا للدخول لكننا تسمرنا فى مكاننا بالكواليس عاجزين عن الحركة ...

فأشار إلينا أن نردد وراءه من الكواليس وبدأ الغناء وانتظر أن

نطلق أصواتنا بالترديد وراءه فلم يسمع شيئًا فاقترب منا وشجعنا على الترديد وأشار لعامل المسرح بأن يقرب منا أحد الميكروفونات ثم عاد إلى مكانه وبدأ يردد المقطع الثانى ... وانتهى منه ثم نظر إلينا مشجعًا فوجدنا فى أنفسنا الشجاعة هذه المرة لأن نغنى فبدأنا نردد هامسين والمطرب ينظر إلينا باسمًا ... ثم علت أصواتنا تدريجيًا فإذا بابتسامته تختفى ووجهه يكفهر ثم راح يغنى المقطع الثالث مكتئبًا وجاء دورنا فانطلقت أصواتنا فأشار لنا أن نسكت لكن هيهات أن نسكت بعد أن نجحنا فى التخلص من جمودنا وخجلنا بصعوبة ... فسكت على مضض حتى انتهى الترديد وهمَّ بمواصلة الغناء فإذا بأحدنا يخطئ بتكرار الترديد من جديد ... فلم ندعه فى محنته وحيدًا واندفعنا لنجدته بأصواتنا المميزة فإذا بالمطرب الشاب يفقد أعصابه وقد أحس بالكارثة فتخلص من رقته العاطفية وصاح فى عامل المسرح بجفاء : شيل الميكرفون يا جدع ! فجاء عامل المسرح مسرعًا يحمله من أمامنا ونحن مستمرون فى الغناء وكل من حولنا يضحكون حتى تنبهنا فجأة للمأزق فسكتنا ونحن نتعثر فى خجلنا وعارنا ـ لكننا لم نستسلم للاحباط طويلاً فقد تأملنا الموقف بنظرة فلسفية مناسبة ثم انفجرنا ضاحكين ونحن نواسى بعضنا البعض بأنه لا مكان للأصوات الأوبرالية ولا الثقافة الموسيقية الرفيعة فى هذا المكان !... ومن هذا اليوم البعيد تعلمت درسًا هامًا من دروس حياتى هو أن رأيي فى قدراتى ليس هو المعيار الصحيح للحكم عليها ... وأن الأهم هو رأى الآخرين فيها !.

فمن لا يسمع سوى صوته لا يستطيع أن يحكم بصدق عما إذا كان

جميلاً أو منفرًا ، ومن لا يسأل الآخرين عن رأيهم فى إمكاناته و يستنير بآرائهم فى تقييمها لن ينجح غالبًا فى معرفة حقيقتها وتوجيهها التوجيه السليم .

وفيما بعد قرأت أن الإنسان يعتقد دائمًا خلال طفولته وصباه أنه موهوب فى أحد مجالات أربعة أو فيها كلها هى الغناء والرسم والأدب وممارسة الرياضة ثم يكبر وتحدد له الأيام مجرى حياته فيكتشف غالبًا أنه عاطل عن الموهبة فى أى من هذه المجالات !.

لهذا قال الحكيم الفرنسى لاروشفوكو إن آراء أعدائنا فينا أقرب إلى الصواب من آرائنا فى أنفسنا !.

وقالت العرب الحق ما شهدت به الأعداء ـ أى ما شهدت لنا به من فضل أو عدل أو قدرات .

فأعرف قدراتك جيدًا يا صديقى وحاول أن توجهها إلى الطريق الذى تلمع فيه وتنمو ، ولن يتحقق لك ذلك إلا إذا عرفت بدقة نقاط قوتك وتميزك الحقيقية ونقاط ضعفك ، ليس من الضرورى أن يكون كل الناس عباقرة ولا موهوبين وإنما من الضرورى فقط أن يختار كل إنسان لنفسه المجال الصحيح الذى يعبر فيه عن نفسه وتنطلق فيه قدراته فأنت إنسان أولاً وأخيرًا والإنسان كما كان يقول شكسبير على لسان هاملت هو أعجب مخلوقات هذا الكون ما أعظمه ... وما أغربه ... فما أعظمك يا صديقى إذا عرفت حدود قدراتك وما أضعفك وما أغربك إذا عميت عنها وغرقت فى أوهامك إلى أن تصدمك صيحة منكرة كصيحة «شيل الميكرفون يا جدع» !.

إنهض يا سيدى .. « الشاب » !

روى أحد الأدباء ذات يوم قصة خيالية عن مهاجر عربى هاجر إلى أمريكا الجنوبية فى منتصف هذا القرن ، فاحتفل به أقاربه الذين سبقوه إلى المهجر وطافوا به شوارع المدينة التى يعيشون فيها فقادتهم أقدامهم إلى مقبرتها ، وأعجب الوافد الجديد بجمال حديقة المقبرة وشواهدها الرخامية الثمينة ، لكنه لاحظ خطأ شائعًا فى بياناتها جميعًا فكل شاهد منها يحمل عبارة من هذا النوع : فلان الفلانى ولد عام ١٨٦٠ ومات عام ١٩٣٠ وعمره عشرون سنة ! ، أو : فلان الفلانى ولد عام ١٨٧٠ ومات ١٩٤٠ وعمره خمسون عاما ! وهكذا .. ! فلفت أنظار أقاربه إلى هذه الأخطاء فى حساب الأعمار فضحكوا منه وقالوا له ، إنه لا خطأ هناك لأن الناس فى هذه المدينة لا يقدرون عمر الإنسان بما عاشه من سنوات من مولده إلى رحيله ، وإنما بما عاشه من لحظات السعادة وهكذا فقد يكون عمر إنسان مثلاً ٧٠ عامًا لكنه لم يعش فعلاً سوى عشرين سنة ، وقد يكون عمر آخر ٦٠ عامًا لكنه عاش ٥٠ عامًا من السعادة فيكون أطول عمرًا من الأول بحساب السعادة وليس بحساب السنين !.

وأعجبت الفكرة المهاجر الجديد وكان فى الأربعين من عمره فتأملها طويلاً ثم تنهد بأسى قبل أن يقول لرفاقه : إذا مت اليوم أو غدًا فأرجو أن تكتبوا على شاهدى هذه العبارة «جبور جبر من بطن أمه إلى القبر !» أى إنه لم يعش يومًا واحدًا من السعادة منذ ولد !.

وأنا من المؤمنين بهذه النظرية فى تقدير الأعمار الحقيقية للإنسان ، بروح الشباب وليس بشهادة ميلاده ،فكما يـمكن أن يكون عمر الإنسان الحقيقى بحساب السعادة ١٠ سنوات فقط وهو فى الخمسين .. يـمكن أن يكون الإنسان أيضًا شابًا فى الستين .. أو شيخًا فى العشرين من عمره بحساب روح الشباب وحماسه فالشباب عندى ليس مرحلة من العمر تبدأ فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة وتنتهى قبيل الأربعين وإنما هو كما يقول الشاعر الأمريكى صامويل أولمان شعور فى النفس وقوة فى الإرادة وتوقد للخيال وللمشاعر والعواطف وتغليب للشجاعة على الخوف والتهيب ، أما الشيخوخة فهى ضعف كل ذلك عند الإنسان ولو كان شابًا فى عنفوان شبابه .

فأنت شاب مهما كان عمرك إذا كانت إرادتك وقلبك وخيالك وشجاعتك ومشاعرك شابة فتية لم يدركها الوهن لكن الشباب فى حاجة دائمة إلى حكمة الشيوخ .. ، والشيوخ دائـمًا فى حاجة إلى قدرة الشباب وكلاهما يتطلع إلى ما ينقصه لدى الآخر ويتعذب به والشاعر العربى حين قال :

أوآه لو عرف الشباب
وآه لو قدر المشيب !

كان يحلم بهذه الروشتة المضمونة للسعادة .. ان «يعرف» الشباب أى أن يتسلحوا بالمعرفة والخبرة والحكمة التى توافرت «للمشيب» وأن «يقدر» المشيب .. أى أن يحتفظ بحماس الشباب وإتقاد مشاعرهم وشجاعتهم وقوة إرادتهم بعد أن يكتسبوا خبرة السنين . والمعادلة قد تكون صعبة لكنها ليست مستحيلة فأنت تستطيع أن تعيش شابًا بقلبك وفكرك طوال العمر إذا تجنبت القلق والشك فى قدرتك وإحساس القنوط واليأس من اليوم .. والخوف من الغد ، وإذا جعلت لنفسك هدفًا تسعى إليه ولحياتك قيمة ومعنى عندك وعند الآخرين ، فالقلق والخوف والإحساس بالعجز وافتقاد الهدف والإحساس بإنعدام الدور مهما كان ضئيلاً هو أكثر ما يهدد الشباب بالشيخوخة وأكثر ما يستدعى التجاعيد إلى وجهك وقلبك وروحك .

ومن أطرف ما قرأت فى قصة حياة المفكر الفرنسى الحالم سان سيمون هو أنه درّب خادمه على أن يوقظه كل صباح فى فراشه قائلاً له : إنهض يا سيدى الكونت .. فإن أمامك مهام عظيمة لتؤديها للبشرية !. فينهض ممتلئًا نشاطًا وحيوية ومستشعرًا أهمية وجوده ودوره فى الحياة التى تنتظر منه الكثير !

ولم يكن لسان سيمون عمل شاق يؤديه سوى القراءة والكتابة والتأليف والدعوة إلى مجتمع يقوم على أسس التعاون بدلاً من قوانين المنافسة الرأسمالية لكن امتلاءه بالإحساس بالهدف كان يجعل لحياته معنى وغاية فلم يفقد حماسه ولا شبابه حتى مات سنة ١٨٢٥ وعمره ٦٥ عاما فإذا كانت ظروف العصر لا تسمح لنا بإستئجار خادم يوقظنا

من النوم كل صباح بهذا النداء الحماسى فلندرِّب أنفسنا على أن يوقظنا نداء داخلى مثله كل يوم . يشحذ حماسنا ويحمينا من الفتور ويبعد عنا تجاعيد شيخوخة الروح .

وكل إنسان يستطيع أن يجد مهامًا عظيمة يؤديها للبشرية إذا أدى واجبه بإخلاص وجعل من نفسه كائنًا بشريًا مفيدًا لمن حوله ولمجتمعه الصغير والكبير .. بل ويستطيع ذلك أيضًا إذا كفَّ أذاه عن الآخرين وحافظ على الحياة وأضاف إليها .. فإماطة الأذى عن الطريق أى رفعه عنه شعبة من شعب الإيمان . كما يقول الحديث الشريف ... وعمل له قيمة ، فما بالك بكف أذى الإنسان عن غيره .. وخدمة الحياة بالعطاء لها فى أى مجال ؟

والايمان بالله أول خطوة فى الطريق إلى سلام النفس الذى يساعدك على الاحتفاظ بشبابك طوال العمر لأن الخواء النفسى يفتح باب الجحيم أمام الإنسان .. ويعجل بغروب شبابه .. فى عز الشباب .

وأنت شاب يا صديقى دائمًا ، ما آمنت بالله وبنفسك وبأهمية وجودك للحياة .. وبحقك فى السعادة وبأنك أكرم مخلوقات الله عليه وبأنك خليفته فى أرضه ، ومسئول عن إعمار هذه الأرض والاضافة إليها كل يوم .

وأنت شيخ يا صديقى ولو كنت شابًا بحساب السنين إذا افتقدت بعض هذا الإيمان وهذا الحماس وهذه الإرادة وهذه النظرة المتفائلة للغد .

فقل لى عن أفكارك وإيمانك وثقتك بربك ونفسك وقوة إرادتك

أقل لك هل أنت شاب أم شيخ متهالك بمقياس صديق الشاعر الأمريكى أولمان ..؟

وحدثنى عن تفتحك للحياة وأيامك السعيدة ولحظات السلام والهناء التى عشتها أقل لك كم يبلغ عمرك الحقيق الآن بمقياس صديق جبور جبر ..

أما إذا أردت أن تعيش شاباً سعيداً طوال العمر .. فانهض ياسيدى الشاب فإن أمامك مهاماً عظيمة لتؤديها لنفسك ولشبابك وللحياة ..

أشياء صغيرة !

كان الأب مشغولاً إلى قمة رأسه بالاستعداد لحفل زفاف ابنته الذى سيبدأ بعد ساعات والأم تتأكد من اللمسات الأخيرة لتورتة الفرح .. وكل شىء . والعروس الشابة فى غرفتها بين صديقاتها ترتدى الفستان الأبيض والأسرة كلها فى انتظار الابن الأكبر الذى سيصل من مدينته القريبة خلال لحظات ليحضر زفاف شقيقته الوحيدة .

وفى زحام التفاصيل الصغيرة التى انشغل بها الأب فوجئ بخطيب ابنته يأتى إليه ببدلة الفرح السوداء الأنيقة ويطلب منه أن يحدثه فى أمر هام ، فترك الأب كل شىء واصطحبه للحديقة .. فإذا بالشاب يطلب منه متحرجًا إلغاء الزفاف أو تأجيله إلى موعد آخر !.

وبهدوء شديد يسأله الأب عن السبب فيجيبه الخطيب لا شىء سوى أنى لست متأكدًا حتى هذه اللحظة مما إذا كنت سأسعد بهذا الزواج أو ستسعد به ابنتك معى .. فأنا حائر .. وكلما اقترب الموعد ازداد شكى وترددى وحيرتى ولا أعرف هل سنسعد أم سنندم .

وبخبرة الأب المجرب لا ينزعج لما سمعه لكنه يفهم على الفور أنه القلق اللذيذ الذى ينتاب الإنسان قبيل الإقدام على خطوة أساسية فى

حياته ويمتص الاب حيرته وقلقه ويؤكد له ان الزواج هو التصرف المثالى بالنسبة له ولابنته .. وأنهما اختارا بعضهما بإرادتهما ، ولن يسعدا إلا معًا .. ثم ان الزفاف بعد ساعات والمدعوين سيصلون بين لحظة وأخرى وليس لائقًا أن يفاجأوا بإلغاء الزفاف بعد أن ارتدوا ملابس السهرة .. واشتروا الهدايا للعروسين ورتبوا أنفسهم على قضاء السهرة فى الحفل !!.

ويفكر الشاب قليلاً . ثم يقول لا أعرف ما هو الصحيح وما هو الخطأ ؟ .. لكنى لن أتراجع على أية حال لكل هذه الأسباب !.. ويربت الأب على ظهره مشجعًا .. وينصرف ويتجول الشاب فى الحديقة قليلاً ثم يتجه إلى البيت .. ويمر بباب غرفة العروس فيراها بثوب الزفاف الأبيض جميلة كالملائكة .. تحاول أن تنتهى من زينتها وتلتقى عيونهما فتبتسم له فى سعادة .. ويبتسم لها فى اشفاق !.. ثم تتسع ابتسامته شيئًا فشيئًا حتى تملأ وجهه .. ويحس فجأة بمخاوفه تتلاشى .. وبالحيوية تتدفق فى عروقه .. فيلوح لها بيده .. ويتجه بنشاط إلى الأم ليشاركها الاستعدادات ويصل الابن من مدينته فتقبل زوجته العروس وتشترك مع صديقاتها فى الاهتمام بشعرها وماكياجها .. ورغم حماسها تلمح الأم فى عينيه نظرة ساهمة حزينة وقبل أن تبدأ مراسم الزفاف بقليل تجد الأم فرصة عابرة لتسأل ابنها عن سر شرود زوجته .. فيعترف لها بأنه قد اتفق معها على الطلاق وأنهما قد أجلاه إلى ما بعد زفاف شقيقته لكيلا يكدرا فرحة الأسرة ! وتصدم الأم .. وتتعجب مما سمعت .. فزوجته شابة رقيقة جميلة وقد تزوجا منذ عام واحد فقط بعد

قصة حب طويلة .. فكيف تبخر الحب سريعًا هكذا .. وتترك ابنها وتسرع إلى الأب المشغول بتعليق الشرائط الملونة والبالونات فى سقف الصالة وتسر إليه بالخبر المزعج وتطلب منه أن يمنع ابنه من ارتكاب هذه الجريمة .. ويندفع الأب ناحية الابن حانقًا لكنه يفاجأ بوصول أول المدعوين فينتزع ابتسامة ويصافحه مرحبًا .. ثم يتوافد بعده باقى المدعوين وتزدحم الصالة بهم .. ويدخل العروسان وسط هالة من الصديقات ومن خلفهما الأب والأم والشقيق وزوجته وتبدأ مراسم الزواج ، ثم تنطلق الموسيقى ، ويفتتح العروسان الرقص وبعد دقيقة ينضم إليهما الأب والأم .. ثم الشقيق وزوجته .. ثم تتسع الدائرة ويشترك الجميع فى الرقص حول العروسين .. ويسود المرح والبهجة المكان .

ويجد الأب أخيرًا أول فرصة ليلتقط أنفاسه .. ويتذكر حديث الأم المزعج فيبحث عن ابنه ويقوده من ذراعه إلى ركن من الصالة ويسأله فى ضيق : لماذا تريد أن تطلق زوجتك !؟

ويخفض الابن عينيه ويجيب : لأنى لست سعيدًا يا أبى ! فينظر إليه الأب طويلاً .. ثم يقول له فى غيظ : ومن هو السعيد يا ولدى ؟

ويرتج الأمر على الابن فلا يدرى بماذا يجيب .. فيواصل الأب حديثه :

إن عدم الإحساس بالسعادة ليس سببًا كافيًا للطلاق وهدم أسرة .. فقد يكون إحساسًا مؤقتًا .. لا يلبث أن يزول إذا بذل الإنسان بعض الجهد فى التواؤم مع حياته ، وقد يكون راجعًا لأسباب يتحمل

هو مسئوليتها وليس من العدل أن يحاسب الآخرين عنها .. ولو سارع كل إنسان لهدم زواجه بعد شهور لأنه لم يشعر فيه بالسعادة التى كان يتخيلها وفقًا لتصوراته وحده لخلت بيوت كثيرة من سكانها .. لكن الابن لا يبدى اقتناعًا بمنطق أبيه فيزداد حنقه ويمسكه من ذراعه ويشير إلى الأزواج الذين يراقصون زوجاتهم ويقول له : انظر إلى هؤلاء الذين يرقصون فى سعادة هل يعنى هذا المنظر الجميل إنهم جميعًا سعداء ! هذا مورجان وزوجته ليندا إنهما منفصلان عمليًا منذ عام لكنهما لم يِقَدما على الطلاق خشية أن يندم كل منهما على قراره وخلال ذلك يخرجان معًا ويتقدمان للناس كزوجين سعيدين وهذا سميث وزوجته مارى إنهما لا يتحدثان معًا إلا أمام الآخرين ومع ذلك فلم يتعجَّلا الطلاق أملاً فى التفاهم ..

وهذا ألكس وزوجته روز .. وهذا جورج وزوجته ستيفانى .. ولماذا نذهب بعيدًا !.. أنا نفسى .. هل يعنى استمرار زواجى بأمك حتى الآن إننى سعيد أو إننى كنت دائمًا سعيدًا .. إن هنالك أشياء كثيرة صغيرة تجمعنى بأمك .. فنحن نشرب قهوة الصباح معًا .. ونتناول العشاء معًا .. وهى تهتم بى وأنا أهتم بها ونحن نتشارك فى إدارة الأسرة .. والاهتمام بك وبأختك . ونتبادل العطف وأحاديث الحياة اليومية ، والسعادة فى النهاية إحساس داخلى غامض يستطيع كل إنسان أن يستشعره فى أبسط الأشياء مهما بدت صغيرة .. ويستطيع أن يفتقده إذا أراد لنفسه ألا يراها .. وألا يستشعرها .. وإذا طلب لنفسه دائمًا الحد الأقصى من كل شىء .

وهذا مستحيل لأن الكمال لا يتحقق إلا فى الجنة وليس هناك جنة فى الأرض .. ، وأنتَ كما فهمت لا تكره زوجتك .. ولا تشكو من سوء طباعها .. ولا تشك فى إخلاصها .. وإنما فقط تبحث عن شيء غامض .. لا تعرف كنهه هو السعادة .. ولن تجده معها ولا مع غيرها ، بهذا المفهوم الضيق .. فلماذا تظلمها .

ولست أعرف بماذا أجاب الابن أباه .. ولا ما هو القرار الذى اتخذه بعد ذلك فلقد انتهت القصة الأمريكية الغريبة التى قرأتها منذ عشرين سنة .. والأسرة والأصدقاء يودعون العروسين المنطلقين إلى اجازة شهر العسل ويرشون الملح عليهما والجميع فرحون مبتهجون .. السعداء وغير السعداء .. والشقيق والزوجة التى يفكر فى طلاقها .. والأم والأب الفيلسوف ، ثم عاد الجميع إلى بيوتهم ولكل منهم شجونه وأحلامه ولقد نسيت اسم هذه القصة الغريبة .. وإسم مؤلفها فيما سقط من الذاكرة خلال رحلة السنين لكنى لم أنس أبدًا هذا السؤال العجيب .

فنحن جميعًا نبحث عن السعادة . لكنه لا ينالها منّا أبدًا إلا من اكتشف المفتاح السرِّى لعالمها وهو الإيمان بالله وقضائه وقدره .. والرضا بما أُتيح لنا من أسباب السعادة والصبر على ما نكره .. والأمل دائمًا فى غد أفضل وفى عدم تعذيب النفس بالطموح إلى المطلق الغامض الذى لا نعرفه وإلى ما لا تؤهلنا إمكاناتنا للوصول إليه .. لأن أهم أسباب الشقاء الإنسانى هو عدم التناسب بين قدرات الإنسان وبين رغباته وطموحاته .. وهو هذا التطلع الصامت إلى ما

لا نستطيع تحديده أو لمسه .. أو الوصول إليه كما أن مفتاح السعادة أيضًا فى الصبر والتسامح والتجاوز عن الهنَّات .. ومحاولة فهم الآخرين والتماس العذر لهم ..

فتذكر ذلك دائمًا يا صديقى وأنت تطلب سعادتك الخاصة .. وإلا شقيت .. وشكوت .. فيصدمك من يسمع لك بهذا السؤال المثير للتأمل : ومن هو السعيد يا ولدى ؟!.

أوراق العمر

جاء الخريف !

اعتدت أن أتأكد من بدايته كل سنة حين أرى شجرة الفل الوحيدة فى شرفة مسكنى وقد تحولت إلى عود من الحطب الأجرد الخالى من الجمال .. لا تنتظر منى أن أقول لك كما يفعل الشعراء أنى أكتئب لتساقط أوراق الشجر وذبول الورد فى الخريف .. فالحق أنى أكتئب لتساقط أوراق العمر وذبول أزهاره يومًا بعد يوم ، ومجىء الخريف يذكرنى بهذه الحقيقة الكونية المرة !.

ولست أنكر جمال الخريف وشاعريته .. فقد كنت فى شبابى من عشاقه .. ولا أحصل على إجازتى السنوية إلا فى شهوره .. وأمضى أيامها فى الإسكندرية عقب إنتهاء زحام الصيف مستمتعًا بالجلوس كالصنم على مقاهى الكورنيش التى اختفت منها ضوضاء المصيفين أقرأ .. وأتأمل البحر إلى أن يتسلل ضوء النهار من وراء سحب الخريف البيضاء .. فأنهض نشيطًا وأبدأ رحلتى اليومية على الكورنيش مستقبلاً أفق البحر سائرًا على مهل لأكثر من ساعة وأتوقف من حين إلى آخر بجوار بعض هواة الصيد فى الصباح الباكر .. متمنيًا فى أعماقى لكل من

أتوقف عنده أن تخرج سنارته بسمكة كبيرة وأبتعد عنه مهرولاً إذا طال وقوفى بجواره بغير أن تهتز خيوط السنارة قبل أن يتلفت حوله فى ضيق ليستكشف سر نحسه !.

لكنى لم أعد أحب الخريف الآن .. وإن كنت لم أستطع بعد أن أتخلى عن عادة الاستمتاع بالتطلع إلى أفق البحر غير المحدود كلما أتيحت لى الفرصة .. كما لم أستطع أبدًا أن أراه بغير أن أتذكر ما حدث لى فى رحلة خريف قمت بها فى سنوات شبابى إلى فينيسيا .. وارتبطت ذكرياتها عندى بالخريف وأفق البحر المترامى .. فقد انتهت الرحلة فى أواخر أيام سبتمبر ووصلت الباخرة المصرية للميناء فحملت إليها حقائبى .. ووجدت أمامى عدة ساعات خالية قبل أن تبحر الباخرة فعدت إلى المدينة العائمة ورحت أتجول فى شوارعها التى أمضيت فيها ١٠ أيام بلا عمل كأنى ألقى عليها نظرة الوداع الأخيرة ووقفت لحظات فوق أحد جسور المدينة العديدة أرقب قوارب الجندول السوداء .. وأسأل نفسى متى يقدر لى أن أراها مرة ثانية .. حين مرت بى فتاة خمنت على الفور أنها مصرية .. تحمل حقيبتين ثقيلتين تنوء بهما .. فى الغربة لا يحتاج المرء لأن يطلع على جواز سفر أحد ليعرف أنه مصرى .. وإنما تكفى اللمحة العابرة لتتعرف على الملامح المصرية .. ثم يجىء دور الكلام .. تأكدت من مصريتها من شكلها ومظهرها وخمنت أنها تتجه إلى الميناء لتركب نفس الباخرة فاقتربت منها .. وعرضت عليها مساعدتها فى حمل إحدى الحقيبتين فوضعتها على الأرض .. وتعارفنا سريعًا .. إنها خريجة جامعية سافرت مع صديقة لها فى رحلة صيف إلى

أوروبا وأمضيتا شهرًا ونصف شهر بين ألمانيا وفرنسا وايطاليا ثم جاءتا إلى فينيسيا لتلحقا بالباخرة ..

انتهى التعارف وجاء دور المساعدة فاخترت بطرف عينى أصغر الحقيبتين نسبيًا وأنحنيت لأرفعها فإذا باحتجاج صارخ من عمودى الفقرى يعجزنى عن تحريكها .. أحسست بالحرج .. وسألتها مبتسمًا عما فيها فإذا به كتب وزنها ٢٧ كيلو جرامًا أما الحقيبة الأخرى التى استهولتها فليس فيها سوى ملابس خفيفة الوزن نسبيًا ! ! ضاعت فرصة الاختيار وأصبح التراجع عارًا .. فانحنيت على الحقيبة ونفخت عروقى كما يفعل الرباعون واستجمعت شجاعتى وقررت أن أرفعها بطريقة الخطف .. وتذكرت فجأة أن خضر التونى رباعنا الأوليمبى الذى فاز بالميدالية الذهبية فى دورة برلين سنة ١٩٣٦ قد صرخ من أعماقه بالعربية : «يا قوى» ثم رفع رفعته الأخيرة فانطلقت الأكف بالتصفيق وتساءل الألمان عما قال البطل المصرى ـ وترجمه لهم المصريون بأنه اسم من أسماء الله الحسنى استغاث به ليستمد منه القوة ، ففعلت كما فعل خضر التونى واستغثت بالله صامتًا ، ثم رفعت الحقيبة فكدت أفقد توازنى ومرت لحظات عصيبة قبل أن أضبط حركتى وأستطيع السير ومشيت إلى جوارها عدة خطوات مائلاً إلى الجانب الأيمن ، ونقلتها إلى يدى اليسرى فمشيت خطوات أخرى مائلاً إلى الجانب الأيسر وتناقلت الحقيبة بين يدى طوال الطريق حتى وصلنا إلى الميناء بعد عذاب وحملنا الحقيبتين إلى الباخرة وجلست ألتقط أنفاسى .. وجلست الفتاة إلى جوارى تستريح حتى استردت نشاطها سريعًا ونهضت فسألتها

بسداجة : إلى أين ؟ لم أندم فى حياتى على سؤال وجهته لأحد كما ندمت على تسرع لسانى بهذا السؤال .. فقد أجابتنى بأنها ستعود إلى محطة السكة الحديد حيث تنتظرها صديقتها مع باقى الحقائب لتواصل نقلها إلى الباخرة .. وأحسست بالحرج لتوقعها مساعدتى لها .. وأحسست بأن شهامتى فى الميزان .. لكنى هونت على نفسى الأمر بأن أثقل الحقائب قد تم نقلها ولن تبلغ أى حقيبة أخرى بعض ثقلها .. وقلت لنفسى : لا ينال الإنسان الذكر الحسن بغير عناء فنهضت متثاقلا إلى محطة السكة الحديد مصمما على أن أواصل مهمتى إلى النهاية وفى فناء محطة السكة الحديد كاد يغمى على حين رأيت صديقتها تقف فى الفناء وحولها « دائرة » من الحقائب والصناديق أصغرها أكبر حجما من الحقيبة التى ناء بها ظهرى .. وفكرت جدياً فى التنازل عن حكاية «الذكر الحسن» هذه والنجاة بنفسى ..

لكنى لم أستطع ، وانتهى الأمر بأن أمضيت ٣ ساعات طويلة كليل المعذبين فى رحلات مكوكية بين محطة السكة الحديد والميناء ، تغيرت على خلالها الفتاتان عدة مرات ولم تفكر إحداهما فى أن تدعنى فى حراسة ما بقى من الحقائب وتخرج الاثنتان معًا فى نقلة من النقلات إلى الباخرة ، حتى انتهت المهمة بعد عناء شديد ..

ودخلت الباخرة وأنا أكاد احبو على أربع ولا تسلنى لماذا لم تفكروا فى استئجار تاكسى .. فليست هناك سيارات أجرة فى فينيسيا تستطيع الذهاب من المحطة إلى الميناء لأن المدينة عبارة عن قنوات مائية .. ولا حل إلا استئجار جندول لنقل الحقائب يتقاضى مبلغًا خياليًا ..

والفتاتان وأنا كنا فى نهاية الرحلة ـ والجميع ـ مفلسين ، وهكذا افترقنا داخل الباخرة وتواعدنا على اللقاء فوق سطحها عند موعد ابحارها لنرى الشاطئ وهو يبتعد عنا رويدًا رويدًا .. والتقينا وتناولنا شاى العصر .. فى قاعة المطعم .. وتحدثنا طويلاً ثم استأذنتهما فى الذهاب للكابين فسألتنى إحداهما : ألن تصعد معنا إلى السطح لترى «الأوريزو» ؟

قلت واحساسى بتخدر عضلاتى يزداد : نعم ؟

قالت : «الأوريزو» .. إنه أفضل مشهد فى رحلة الباخرة خلال فصل الخريف الذى بدأ منذ أيام وخاصة عند الأصيل .. تساءلت بينى وبين نفسى عما تقصده «بالأوريزو» .. إن من معالم الرحلة بين فينيسيا والإسكندرية بالباخرة ممر جبلى ضيق فى إحدى الجزر تمر به الباخرة فتكاد تلمس جدار الممر بذراعك لو وقفت فى شرفة الباخرة .. وقد رأيته فى رحلة سابقة .. لكن الباخرة لا تعبره إلا فى اليوم الثالث من الرحلة فماذا تقصد بالأوريزو ؟

أحسست بالخجل من جهلى السياحى ونهضت معهما إلى السطح .. فإذا بنا نتجه إلى سور الباخرة لنتطلع إلى البحر المترامى وقرص الشمس الأحمر يغطس شيئًا فشيئًا فيه .

آه .. هذا إذن هو «الأوريزو» أى الأفق بالفرنسية و «هورايزون» بالانجليزية .. لقد أعجزتنى آلام الظهر والأذرع والأكتاف عن التفكير فلم ألتقط معنى الكلمة فى الوقت المناسب .. لكنى تداركت الأمر سريعًا وحرصت على إظهار استمتاعى بالمشهد فى صحبة فتاتين مثقفتين

حديثهما ممتع إلى أن ألححت عليهما فى الاستئذان واعدًا إياهما بمشاهدة المنظر معهما خلال أيام الرحلة الطويلة التى لن نجد ما نفعله فيها سوى التطلع إليه ..

وأسرعت إلى سريرى فلم أنهض منه إلا فى الصباح وقد تضاعفت آلام الظهر والكتفين ، فتوجعت وتأوهت وسألنى زميلى فى الرحلة الذى اختفى طوال رحلاتى المكوكية والذى بحثت عنه لينجدنى فلم أره إلا فى الكابين : مالك ؟.. فوجدت نفسى أقول له بغير تفكير « الأوريزو » حيموتنى !

قصدت أن أقول « ظهرى » فأفلت لسانى بهذه الكلمة العجيبة .. وتنبهت لغلطتى فضحكت ورويت له ما حدث .

ودعوته للذهاب إليهما لتناول الافطار معهما .. وانقضت الرحلة بين الحديث مع الفتاتين المثقفتين .. والتطلع الطويل الصامت إلى أفق البحر فوق السطح .. وبين ترددى على طبيب الباخرة طلبًا لمسكنات آلام العمود الفقرى .. حتى افترقنا بسلام فى الإسكندرية ..

ثم تسألنى بعد ذلك .. لماذا لا أحب الخريف ؟!!!

أنت « بوذا » !

لا أعرف لماذا أصبحت « فجأة » هدفًا لعشرات الأسئلة من زملاء صحفيين وإذاعيين يرون ـ خطأً أو صوابًا .. وخطأً غالبًا ـ إننى قد اكتسبت من خلال تعاملى مع هموم الآخرين فى بريد الجمعة خبرة تتيح لى أن أبدى آراء معينة فى مشاكل الحياة والحب والزواج والشباب ، وهكذا توالت علىَّ الأسئلة عبر تحقيقات صحفية وإذاعية عديدة خلال الفترة الماضية حتى فى زيارتى الأخيرة للندن حين وجدت نفسى جالسًا أمام ميكرفون إذاعة لندن العربية .. ومن خلال الأسئلة والأجوبة « ضبطت نفسى » أردد هذه الآراء .

ـ هل يعنى استمرار الحياة الزوجية إنها بالضرورة ناجحة ؟

قلت : الاستمرار وحده ليس مقياسًا للنجاح .. فقد يكون الاستمرار تضحية وضريبة يؤديها الطرفان صاغرين من أجل الأبناء لكنه يصبح مقياسًا للنجاح إذا كان فى وسع الطرفين لو أعاد كل منهما تجربة الزواج أن يختار نفس الشخص !.

ـ من أكثر معاناة فى الحياة الزوجية الرجل أم المرأة » !.

قلت : المرأة أكثر شكوى من حياتها سواء أكانت أكثر معاناة أو

أقل .. والرجل أكثر صبرًا على آلامه وأكثر تحملاً لظروفه فإن شكا فإن شكواه تكون غالبًا أكثر عمقًا وأكثر إيلامًا .

* * *

ـ ماذا ينقص بيوتنا بوجه عام ؟!.

قلت : الحب .. فالزواج فى المجتمعات الغربية مشروع لا يقوم إلا على الحب ولا يبرره سواه ، أما فى مجتمعاتنا فهو فى كثير من الأحيان مشروع تحركه رغبة الشاب فى الاستقرار ورغبة الفتاة فى الستر ، وهى دوافع شريفة فى حد ذاتها لكنها وحدها لا تكفى لضمان السعادة خاصة حين تلح على أحد الطرفين فتدفعه للاقدام على مشروع الزواج بدون دراسة كافية للطرف الآخر وأحيانًا بلا مجرد القبول النفسى له وهذه كارثة تنفرد بها مجتمعاتنا .. حين يرى كثيرون مؤشرات الفشل واضحة خلال فترة الخطبة ثم يستمرون فى المشروع كأنه قدر مكتوب لا حيلة لهم فيه أو كأنهم يسيرون نيامًا إلى مصير لا يستطيعون دفعه .. والنتيجة .. مزيد من البيوت الخالية من الحب وكثير من المشاكل !.

* * *

ـ ما هو أبشع أخطاء الفتاة والشاب قبل الزواج ؟

قلت : إنهما لا يجيدان فى بعض الأحيان اختيار الرفيق المناسب

ـ وبعده ؟

قلت : إنهما لا يجيدان فن الاعتذار لأن كثيرًا من مشاكل الحياة

الزوجية خاصة فى سنواتها الأولى وهى أصعب مراحلها يمكن حلها ببساطة بكلمة اعتذار رقيقة ممن أخطأ فى حق شريكه لكننا للأسف لا نجيد هذا الفن وقد نشعر بالخطأ الذى ارتكبناه لكننا لا نعتذر ومعظمنا يتصور أن الاعتذار يتنافى مع الكرامة .. والعكس هو الصحيح تمامًا لأن من يعتذر عن خطئه يعتز بكرامته ويأبى عليها أن يكون إنسانًا مكابرًا أو جاحدًا أو ظالمًا .. والإنسان الكريم هو من يصفح الصفح الجميل وينسى ، وفى غيبة الاعتذار والقبول تتفاقم المشاكل وتترسب المرارة فى النفوس فيرحل طائر الحب عن عشه ..

ـ ما هى أصعب نصيحة توجهها لصاحب مشكلة يستشيرك ؟

قلت : الطلاق .. إذا كان عنده أطفال صغار لأن الأبناء هم أشرف دوافع استمرار الزواج ولو كان تعيسًا ..

ـ وأسهل نصيحة ؟

قلت : الطلاق أيضًا ! ! إذا استحالت العشرة ولم يكن هناك أطفال صغار .. يبررون تحمل الإنسان لأقداره ! .

* * *

ـ ماذا استفدت من معايشتك لمشاكل الآخرين وهمومهم فى بريد الجمعة ؟

قلت : تعلمت ألا أشكو من كثير مما كنت أشكو منه قبل تعاملى مع هموم الآخرين ومعايشتى لها .. فقد وجدت مشاكلى تبدو كرءوس الدبابيس إلى جانب المشاكل الأخرى التى ترتفع كالجبال .. فتعلمت

أن أرضى وأن أشكر الله على كل شيء كما استفدت من تجارب الآخرين دروسها فكأنما عشت حياتهم وأضفتها إلى حياتى .. أو كأنما حققت حلم عيسى الدباغ بطل رواية السمان والخريف لنجيب محفوظ الذى تمنى لو كان الإنسان يستطيع أن يعود إلى الحياة أكثر من مرة لكى يحسن التصرف فيها مسلحًا بالخبرات التى اكتسبها فى «حيواته» السابقة

ـ ماذا يؤثر فيك أكثر دموع الرجل أم دموع المرأة ؟!.

قلت : دموع الرجل .. لأن البكاء مخالف لطبيعته فإذا بكى امامى وهو يروى لى مشكلته كان ألمه فوق أن يُحتمل وكان ألمى معه أشد !.

ـ ما هى أفضل وسيلة للانتقام ممن يسيئون إلينا ؟!.

قلت : هو ألا تصبح مثلهم .. نتجنب أن نسلك نفس سلوكياتهم المريضة فى حياتنا ونترفع عن الرد عليها ليزداد شعورهم بحقارتهم وتفاهة شأنهم وانحراف أخلاقياتهم وهذا الاكتشاف ليس جديدًا فقد اهتدى إليه الامبراطور الرومانى الحكيم ماركوس أورليوس (١٢١ ـ ١٨٠ ميلادية) وسجله فى مذكراته وهو مهموم بتجاربه مع الالتواء البشرى وحقارة تصرفات البعض !!

ـ ما هى أسعد لحظة عندك ؟

قلت : لحظة «التنوير» التى تنفرج فيها عقدة الأزمة وتجد المشكلة فيها الحل الذى يرضى صاحب المشكلة أو صاحبتها .. فهى من اللحظات القليلة التى يحس الإنسان فيها أن لحياته معنى. ويتأكد فيها

يقينى بأن الخير فى الحياة هو الأصل وأن الشر هو الاستثناء وإن كان استثناءً مزعجًا !.

* * *

ـ كيف يستطيع الإنسان أن يجعل لحياته قيمة إذا كان لا يملك جاهًا يخدم به الآخرين ولا مالاً يساعدهم به ؟

قلت : عند الشاعر أمادو نرفو قد تجد الجواب .. فهو الذى قال : فى كل ساعة من ساعات النهار تستطيع أن تجود بشىء للآخرين .. قد يكون ابتسامة فى وجوههم وقد يكون يدًا تمدها لمصافحتهم وقد يكون كلمة تواسيهم بها أو تشد بها أزرهم .

وعند الشاعر والفيلسوف الأمريكى رالف أمرسون (١٨٠٣ ـ ١٨٨٢) جواب آخر هو كن دائمًا رسولاً يفتح الأبواب لمن يأتى بعده .. ولا تحاول أن تجعل من الدنيا طريقًا مسدودًا .

ـ من هو الشاب المثالى فى رأيك ؟

قلت : هو « بوذا » الذى يتطلع إلى أن يكون « سيد هارثا » .

ـ ما معنى هذا ؟

قلت : كلمة « بوذا » معناها الحرفى فى اللغة السنسكريتية « المستنير » وكلمة « سيد هارثا » معناها : الذى بلغ أمله « وبوذا » هو اللقب الذى اشتهر به الزعيم الدينى الهندى الذى أسس مذهب البوذية فى القرن الأول قبل الميلاد .

و « سيد هارثا » هو اسمه الأصلى .. وكل شاب مستنير يتسلح بالعلم

والثقافة وبالقيم الدينية والأخلاقية ويحترم حرية الآخرين وآراءهم ويتقبل النقد بصدر رحب وعلى استعداد لأن يستفيد من آراء الآخرين وان يرى فيها الصواب ويسعى بالكفاح والعرق والصبر إلى تحقيق أهدافه فى الحياة سوف يصبح «سيد هارثا» ذات يوم فيجمع بين المعرفة والسعادة وبين راحة القلب وراحة العقل والضمير.. قل .. إن شاء الله !.

اضحك بصوت عال !

هل تريد أن تعرف أحدث طريقة للسعادة وتجنب الاكتئاب وأمراض القلب والشرايين والقرحة والأرق ؟! سأقدمها لك بلا ثمن : اضحك بصوت عال إذا ابتهجت وإبك بلا حياء إذا أهمَّك شيء .. واشك همك لمن تستريح إليهم فإن لم تجد فسجله على الورق .. أو بالريشة .. أو على شريط كاسيت .. واهزم همومك باخراجها من مكانها إلى الهواء الطلق .. وطهر قلبك من الكراهية والرغبة فى الانتقام ممن أساءوا إليك .. وعش حياتك باعتدال .. فلا تسرف فى التفكير فى المستقبل على حساب الحاضر.. ولا تتعامى عنه نهائيًا ..

هذه هى روشتة السلامة النفسية ، التى توصل إليها الأطباء وعلماء النفس بعد دراسات طويلة ولو أمعنت التفكير فيها لوجدت أن أصغر طفل فى العالم قد اهتدى إليها بلا دراسات ولا بحوث .. فالأطفال سعداء لأنهم يعبرون عن مشاعرهم بتلقائية لا تضع اعتبارًا للقيود الاجتماعية التى تلتف حول أعناقنا ، فهو إذا ابتهج ضحك بصوت عال وفى أى مكان .. وإذا تألم بكى بصوت أعلى وفى أى وقت .. وليس له باطن وظاهر وما فى قلبه على طرف لسانه وفوق تعبيرات وجهه فإذا

أحب إنسانًا ابتسم له وإذا كرهه عبس فى وجهه لأنه غير مضطر إلى مجاملة أحد أو اخفاء مشاعره .. ثم هو ـ وهو الأهم ـ لا يكره أحدًا كراهية عميقة أو دائمة .. فكراهيته مؤقته قد لا تستغرق دقائق وصفاء نفسه دائم لهذا فهو سعيد .. لأنه طفل أو لأنه فيلسوف أدرك ما لم ندركه نحن من أسباب السعادة !.

والمشكلة فى رأيي ليست فى أن نضحك حين نريد .. لكن المشكلة هى فى أن نبكي وأن نشكو همومنا لنطلق بخارها المكتوم من صدورنا ونستريح .. فنحن فى عصر كل إنسان مشغول فيه بأمره عن الآخرين .. ولو جلس إنسان على الرصيف وأعلن أنه سوف يسمع للآخرين همومهم ونجواهم بلا أجر وبغير أن يبذل جهدًا سوى السماع واظهار الاهتمام والمشاركة الوجدانية لوقف الناس فى طوابير أمامه ينتظرون دورهم .. لكن مجرد الاستماع للآخرين قد أصبح شيئًا عزيز المنال فى بعض الأحيان لهذا يشكو القادرون لأطباء النفس فى مواعيد محددة وبأجر معلوم .. ويشكو الآخرون إلى الله فى صلاتهم وإلى الأولياء .. وإلى أبواب البريد فى الصحف ..

وشكا الحوذى العجوز فى قصة تشيكوف الشهيرة إلى حصانه حزنه على زوجته وألمه لفراقها بعد أن لم يجد من يسمعه .. ورأيت ذات مرة فى ضريح السيدة نفيسة رجلاً وقورًا يضع يده على قضبان الضريح المعدنية ويشكو لها ابنه فيقول .. عقنى ابنى .. أيرضيك هذا ؟.. رفض نصيحتى وخالف إرادتى أيرضيك هذا ؟.. يريد أن يهاجر ويتركنى وحيدًا فى شيخوختى .. أيرضيك هذا ؟ ثم انسابت دموعه صامتة

وقاومت أنا دموعى .. ولولا الحياء لطلبت منه أن يفضفض عن همومه معى وأن يبكى على راحته حتى يشتفى ..

والكاتب الكندى ستيفن ليكوك «١٨٦٩ ــ ١٩٤٤» يقول إن قيمة الحياة فى أن نحياها ونحيا كل ساعة منها .. فنلبس لكل حال رداءها فنعمل كالنحلة وقت العمل .. ونسترخى كمهراجات الهنود الذين تتهادى مراوح ريش النعام بالهواء الرقيق على وجوههم عند الراحة .. ونضحك حين نجد ما يبهجنا .. ونبكى حين تؤلمنا أشواك الحياة ، ونتعامل مع الآخرين بنفسية الطفل الذى يحب الجميع ولا يكره إلا قليلاً ولأوقات عابرة .. ونحول ألمنا إلى ألم مهموس لأن الألم المكتوم أشد ضررًا بالنفس والصحة من الألم المهموس المروى للآخرين ، وألا نتصور أننا وحدنا فى مشاكلنا ومتاعبنا وطموحنا الذى تعجزنا الوسائل عن تحقيقه أحيانًا فلكل إنسان من همه ما يكفيه ومن سعادته ما يرضيه كما قال صادقًا الفقيه الدستورى عبد الرزاق السنهورى ، ولقد ذكرت فى مقدمة كتابى الأول «أصدقاء على الورق» الحوار الذى أورده الكاتب الفرنسى الكبير اندريه مالرو فى مذكراته حين قال : سألت القس الذى أمضى ١٥ سنة يتلقى الاعترافات ماذا تعلمت من اعترافات البشر فأجاب : تعلمت أن الناس أتعس كثيرًا مما نظن !!.

واكتفيت بهذا الجزء منه .. ولا أعرف لماذا تجاهلت بقية إجابة القس على السؤال وهى «وإنه ليس هناك أشخاص كبار !» ، وحين عدت إلى هذا الحوار منذ فترة قريبة توقفت أمام هذه العبارة

متعجبًا .. نعم ليس هناك أشخاص كبار لأننا جميعًا صغار أمام همومنا وفى أعين أنفسنا .. ولا يرى أنفسهم كبارًا سوى الحمقى والمغرورين والمصابين بجنون العظمة ، وأنت لست واحدًا من هؤلاء .. ولا أنا فيما أرجو ، لهذا يقول لك الشاعر الهندى العظيم رابندرات طاغور «١٨٦١ - ١٩٤١» أبحث فى الناس عن مزاياهم .. وأبحث فى نفسك عن عيوبك تكن أحكم الناس .. وأقول لك أنا أيضًا : اضحك وابك واعمل واسترح وتحرك واسترخ ولا تكتم سعادتك ولا آلامك .. وثق بربك واعتمد عليه ولا تبخس نفسك حقها ولا تسرف فى تقديرها ونم وقتًا كافيًا واستمتع بالقراءة والموسيقى وصحبة أصدقاء القلب والنفس والروح وانظر إلى الجانب المبهج من الحياة وتعامى عن الجانب المؤلم منها تكن أسعد الناس أو تكن طفلاً كبيرًا سعيدًا .. أو طفلاً فيلسوفًا .. ولا تخجل من سعادتك ولا من دموعك .. فاضحك بلا تردد وابك بلا خجل إذا تكاثرت سحب الهموم داخلك فالدموع تغسل العيون وتنظفها وتغسل الروح وتحميها من أدران الاكتئاب .. ولا أعرف كيف تنبه الشاعر العربى ابن الرومى لهذه الحقيقة التى يؤكدها الآن علماء النفس فقال منذ أكثر من ألف سنة :

لم يخلق الدمع لامرىء عبثا
الله أدرى بلوعة الحزن

وقال شاعرنا الكبير حافظ إبراهيم :

يا من خلقت الدمع لطفًا منك بالباكى الحزين
بارك لعبدك فى الدموع فإنها نعم المعين ! ! .

فإذا كان الأمر كذلك .. فلماذا تكتم ضحكتك دائمًا .. ولماذا تحبس دموعك غالبًا ؟؟.

ليالى « التلج » ..... فى فيينا !

سامح الله الأدباء والمفكرين والفنانين الذين أحببناهم ... فشحططونا وراءهم فى الحوارى والشوارع !.

فمنذ أحببت القراءة وأحببت عددًا كبيرًا من الكتاب والأدباء والفنانين اكتسبت هواية غريبة هى أن أحاول أن أرى الأماكن التى كتبوا عنها .. والبيوت التى عاشوا فيها ... والمقاهى التى جلسوا فيها ، وأصبحت للأماكن والأشياء قيم مختلفة عندى لا علاقة لها بقيمتها الحقيقية فالمقهى القديم الذى قد تأنف من فكرة الجلوس فيه بالقرب من دار الكتب المصرية .. أطوف به أنا كالعابد لأن شاعر النيل حافظ إبراهيم كان يجلس فيه فى عشرينات القرن وهو وكيل لدار الكتب يدخن الشيشة ويطلق النكات .

والحارة المتربة التى قد تتأفف من عبورها اتجول أنا فيها هائـمًا .. لأنها الحارة التى اختارها نجيب محفوظ مسرحًا لأحداث قصصه الرائعة بين القصرين أو السكرية أو قصر الشوق .

أما السعى وراء بيوت هؤلاء الأدباء .. وانفاق الساعات الطويلة فى البحث عن الربع الذى أقام فيه طه حسين وهو يطلب العلم فى

الأزهر.. أو البيت الذى أمضى فيه العقاد سنواته الأخيرة .. أو «الكرمة» التى عاش فيها أمير الشعراء أحمد شوقى .. إلخ .. فحدث عنه ولا حرج فلقد استنفد من أيامى الكثير ومازال يستنفد ما بقى منها وحين سافرت إلى أوروبا لأول مرة ورست الباخرة فى ميناء بيريه اليونانى هبطت إلى الميناء متهيبًا .. وركبت الأتوبيس إلى اثينا وأنا مبهور الأنفاس ... ونزلت إلى شوارعها فى حرص وأدب يليقان بأرض الفلاسفة الذين قرأت عنهم وأحببتهم .. وطفت بآثار المدينة أتلفت حولى كما لو كنت سألتقى فى طريقى الفيلسوف العظيم سقراط .. يسير حافيًا وجلبابه مفتوح الصدر ومن حوله هالة من المريدين ... وهو يجادلهم ويجادلونه .. ! أو كأنى سوف ألتقى بديوجين حاملاً مصباحه وكلما سئل عما يبحث عنه بمصباحه فى ضوء الشمس أجاب ذاهلاً : أبحث عن رجل شريف ! وحين سافرت إلى باريس لأول مرة كان أول ما بحثت عنه هو المقهى الذى كان يعقد فيه الأديب والفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر جلسته الأسبوعية .. وإلى جواره سيمون دى بوفوار وتلاميذه الكثيرون ودفعت ثمن هذه الهواية الغريبة غاليًا ذات يوم فقد بشرنى صديق مصرى مقيم فى باريس تليفونيًا بأنه عثر لى على كنز يعرف أنى سأسعد به ـ هو فندق صغير فى الحى اللاتينى يعلق لافتة تقول إن الفنان العالمى بيكاسو أقام فى هذا الفندق ذات يوم .. فأسرعت أرجوه أن يحجز لى غرفة فيه وأن يدفع عنى ايجارها مقدمًا قبل أن تضيع ثم تركت فندقى النظيف الرخيص وحملت حقيبتى وأسرعت بالتاكسى إليه فوجدته يقف مزهوًا باكتشافه إلى جوار الفندق ودخلته

معه وقرأت اللافتة وأنا فى قمة النشوة ... وأخذت مفتاح الغرفة فى الدور الرابع وصدمتنى رائحة تقلية صادرة من مطبخ الفندق أفسدت على بعض خيالى .. لكنى لم أستسلم .. وشكرت صديقى بحرارة وسددت دينى المادى له .. أما دينى «الأدبى» فهيهات أن أستطيع سداده ثم ودعته وبحثت عن المصعد فلم أجد بالفندق مصعدًا واضطررت لحمل الحقيبة الثقيلة على السلم الضيق أربعة أدوار.

وصدمت مرة أخرى برثاثة الغرفة وضيقها وانخفاض سقفها والقذارة المنتشرة فى كل مكان من الفندق .. وتعجبت لذلك وكل فنادق باريس نظيفة كالجوهرة لكنى لم أفكر فى التراجع فكله يهون فى سبيل بيكاسو وهذه الهواية اللعينة ؟.

وفى لندن ضاق بى سائق التاكسى وأنا أطلب منه الانتقال من شارع إلى شارع ومن حارة ضيقة إلى أخرى لكى أرى الحى الذى جرت فيه أحداث قصة ديكنز الشهيرة «أوليفر تويست» وأتخيل الصبى المحروم الذى لاطمته الدنيا ولاطمها فسألنى بحدة .. إلى أين تريد أن تذهب يا سيد .. أريد عنوانًا محددًا أنزلك فيه وانصرف ..، فخشيت أن يتركنى وحيدًا فى الحى البعيد .. وأسرعت أطلب العودة وعدت !.

وحين زرت فيينا لأول مرة منذ عامين .. لم يكن فى خيالى عنها سوى أسماء أعلامها البارزين كالأديب ستيفان زفايج وعالم النفس سيجموند فرويد والسياسى الشهير ميترنيخ .. وأعلام الموسيقى الذين أهدتهم للبشرية موزار وليهار وشتراوس وفتجنشتين وغيرهم ثم صدى لأغنية قديمة شهيرة لاسمهان تقول فيها «ليالى الأنس فى فيينا ـ نسيمها

من هوا الجنة » .. فخرجت من مطارها أبحث عن هواء الجنة .. وتجولت فى شوارعها بحثًا عن آثار الامبراطورية القديمة التى عرفت باسم امبراطورية النمسا والمجر ..!.

وفى قصر الشنبرون الذى بقى مع غيره من القصور من آثار العز القديم انبهرت بالذوق الامبراطورى الرفيع .. وأمام أوبرا فيينا الشهيرة وقفت كالمتبتل ... وأنا أتذكر عبارة شهيرة تقول إنه ليس فى النمسا طوابير أمام أى سلعة أو خدمات سوى طابور الواقفين أمام شباك تذاكر الأوبرا . وسألت عن ليالى الأنس الشهيرة فأجابنى صديق المقيم فى النمسا بأن فى إحدى ضواحى فيينا حيًا كاملاً اسمه جرنسنج ليس فيه سوى مطاعم تقليدية قديمة عمرها أكثر من مائتى سنة وترتدى فيها الجارسونات الملابس النمسوية الشعبية القديمة الزاهية الألوان ويؤمها السياح من كل أنحاء العالم فى مجموعات كبيرة فيأكلون ويشربون ويغنون ... ومن هذا الحى جاءت شهرة ليالى فيينا فقلت له وأنا أتحرك .. وماذا تنتظر ؟

وفى مطاعم جرنسنج رأيت سياح العالم كله .. يأكلون البط بالبرتقال ويغنون ويمرحون ... وفى أحد هذه المطاعم التى تدار بالكمبيوتر لكثرة عدد روادها سألتنى الجارسونة المرهقة متعجلة : أبيض أم أحمر ؟

وفهمت بصعوبة إنها تسألنى هل تريد النبيذ أحمر أم أبيض لأنها تفترض أن الجميع يشربون النبيذ مع الطعام .. فضحكت وقلت : بل أسود ...... فقطبت حاجبيها ولم تفهم ، فقلت أى زجاجة كوكا كولا

مع الطعام .. فانطفأ حماسها وتلقت طلب الطعام وهى مكتئبة وأكلت البط بالبرتقال وأنا مبتهج !.

وقلت لنفسى وأنا أغادر النمسا يومها ـ إنها فعلاً ليالى الأنس ... فهى جميلة ونظيفة .. وغنية ... وسكانها السبعة الملايين ونصف المليون صنعوا معجزة فى سنوات قليلة فلقد ضمها هتلر إلى بلاده بلا مقاومة سنة ١٩٣٨ ثم احتلتها أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا بعد هزيمة ألمانيا سنة ١٩٤٥ عشر سنوات ، ثم استقلت سنة ١٩٥٥ واعتمدت سياسة الحياد من يومها .. وتمكنت خلال السنوات التالية من إعادة بناء اقتصادها فأصبحت دولة صناعية نشطة .

وحين زرت النمسا فى الشهر الماضى .. حلمت مرة أخرى ببهجة ليالى الأنس التى داعبت خيالى من قبل فاكتشفت أن الزيارة الأولى كانت فى الصيف ... والسماء مضيئة والشوارع مزدحمة .. والجو صحو ... وأن زيارتى هذه فى ديسمبر والسماء تحجبها الغيوم والبرد قارس والشوارع خالية .. والثلج يعرقل الحركة ويعتقل الناس فى المكاتب والبيوت ودرجة الحرارة تداعب الصفر هبوطاً وصعوداً كل يوم .. وليس فى الشوارع سوى منظر يوجع القلب وهو منظر الشباب المصريين الذين يبيعون الصحف ويرتدون الجاكت الأصفر المميز لكل صحيفة ومعظمهم من حملة المؤهلات المتوسطة .. وبعضهم استراح إلى حياته هكذا فأمضى ١٥ عاما فى المهنة ومازال يرغب فيها بلا طموح ولا تخطيط للمستقبل فإن كان ثمة ما يعوض هذا المشهد الكئيب فهو وجود بعض العناصر الناجحة فى الجالية المصرية الذين

حققوا نجاحًا مشرفًا لبلادهم . ولأن البرد قارس فلقد أمضيت أيامى بفيينا فى لقاءات عمل مكثفة فى النهار من مكتب إلى مكتب ومن مبنى إلى مبنى .. والحلق جاف .. والبرد يجمد الأطراف .. والأذنان أعلنتا الاستقلال عن باقى الجسم فلم تعد تربطهما به صلة .. وفى الليل فى الفندق بلا رغبة فى الخروج .. أما هوايتى إياها فلم أستطع اشباعها فى هذه الرحلة وفشلت محاولاتى المتكررة فى مدينة سالزبورج لزيارة بيت موزار عبقرى الموسيقى الذى ألف أوبرات زواج فيجارو و « دون جوان » والناى الساحر وآلاف القطع الموسيقية الصغيرة ... ولم يعش رغم ذلك سوى ٣٥ سنة من ١٧٥٦ إلى ١٧٩١ وقضى معظمها فى حياة جافة متقشفة ومثقلاً بالديون رغم كل هذا الإنتاج الضخم وقد فشلت فى العثور على بيته الذى حولوه إلى متحف بالرغم من أن سائق التاكسى قد أشار إليه وهو منطلق بنا فى إحدى الزيارات وقد عدت فى اليوم التالى إلى نفس المنطقة أبحث عن بيت موزار فإذا به سراب أراه من بعيد .. فأتوجه إليه فوق الجليد الذى يغطى الشارع ويهددنى بالسقوط فى كل لحظة فإذا طرقت بابه اكتشفت أنه ليس بيت موزار لكنه معهد موسيقى يحمل اسمه أو قاعة لسماع الموسيقى باسمه .. أو مكتبة موسيقية .. وهكذا .. حتى يئست وعدت .. واكتشفت أن مبانى كثيرة تحمل اسم الموسيقار العبقرى . حتى إن بعض أنواع الشيكولاته تحمل اسمه وصورته ... أما بيته الحقيقى فلم اهتد إليه إلا بعد منتصف الليل والبيت مغلق وعلى أن أغادر سالزبورج فى الصباح الباكر فعدت إلى فيينا محبطًا لأنى لم أزر بيته ولم أعثر على ليالى الأنس الشهيرة .. التى تحصل على

إجازة فى الشتاء القارس ... وقبل أن أغادر فيينا سألنى صديق مصطفى ونحن نغادر أحد المكاتب بعد لقاء عمل : أعجبتك النمسا ؟ فقلت بلا تردد : ممتعة صيفًا .. جميلة بلا بهجة ولا روح شتاء لكن هناك شيئًا يحيرنى فسألنى عنه ففكرت طويلاً ثم قلت له مستحييًا هيه « قهوة » كلمة عيب فى النمسا ؟

وأجاب مندهشًا : أبدًا .. لماذا ؟

فزفرت وأنا أقاوم البرد والصداع وقلت له :

أمال ما حدش جاب سيرتها ليه فى كل المكاتب التى دخلناها !

وركبت الطائرة عائدًا إلى دفء القاهرة !.

لسانك سكر

خذها نصيحة منى ..

إذا استطعت أن تخرج لسانك كل صباح من فمك ثم تغسله جيدًا وتنقعه فى مطهر قوى لمدة دقائق .. ثم فى محلول للسكر لمدة نصف ساعة ثم تعيده إلى فمك قبل أن تخرج للحياة وللناس .. فافعل ولا تتردد !.

فكل ما حولك يؤكد لك أن هلاكك فى لسانك .. إذا كان مرًّا علقمًا ، ونجاتك فيه أيضًا إذا كان حلوًا مستطابًا !.

والحكمة البوذية القديمة التى تقول إن مفاتيح الجنة .. هى نفسها التى تفتح أبواب الجحيم ، قد لا تنطبق إنطباقًا تامًا إلا على هذا العضو اللعين الصغير من أعضاء جسمك .. فهو يستطيع فعلاً أن يفتح لك أبواب الجنة فى علاقاتك مع الآخرين .. ويستطيع أيضًا أن يفتح عليك أبواب الجحيم معهم .

وفى قصة صينية قديمة أن أسرة قد ولد لها طفل وأقبل الجيران يهنئونها فقال الجار الأول .. يا له من طفل جميل . لاشك أنه سيكون

قائدًا عظيمًا ... فانهالت عليه الأسرة بالشكر والثناء وقدموا له الشراب وانصرف راضيًا .

وقال الجار الثانى : يا له من طفل رائع .. لاشك أنه سوف يصبح تاجرًا ثريًا وشخصًا مرموقًا .. أما الجار الثالث فقد نظر للطفل ثم قال : هذا الطفل سوف يموت ! فقامت عليه الأسرة تضربه وتطرده ــ وخرج مهانًا مطاردًا مع أنه لم يقل سوى الحقيقة لأن كل مولود لابد أن يموت يومًا ولو بعد مائة سنة .. لكن أى حقيقة .. وفى أى مقام .. وما هى ضرورتها فى مثل هذه المناسبة السعيدة !.

وسليمان الحكيم كان يقول إن الجواب اللين يصرف الغضب وصدق فيما قال .. فمعظم مشاكل الإنسان مع الآخرين تنشأ حين ينسى هذه الحكمة الغالية ..

وفى الموسيقى هناك أسلوبان معروفان لعزف الأعمال الكلاسيكية .. الأول هو .. «الكريشندو» وفيه تتصاعد الموسيقى بسرعة .. وكلما رفعت مجموعة من الآلات صوتها ردت عليها المجموعة الأخرى برفع درجة الصوت إلى أعلى منها .. وهكذا حتى تشتبك الآلات فى مشاجرة عنيفة يصل فيها الصوت الصاخب إلى أقصى مداه وتنتهى اللحظة المتوترة بدقة «الدونج» النهائية .

والثانى هو أسلوب «النيانس» وفيه «تتخافت» أصوات الآلات تدريجيًا .. وكلما خفضت مجموعة من صوتها ردت عليها المجموعة الأخرى بتخفيض صوتها لمستوى أقل حتى يتلاقيا معًا فى أدنى درجات الصوت .. فى حوار حالم شاعرى رقيق يريح أعصاب المستمعين ..

ويحبس أنفاسهم من المتعة .. والخشوع والخيال !.

ومعظم مشاكل الإنسان مع الآخرين تنبع من تفضيلهم لأسلوب الكريشندو فى معاملاتهم الخاصة والعامة فلا يستريحون ولا يريحون . تطيش كلمة من فم الزوج مثلاً .. فلا تمتصها الزوجة وتحتويها بعتاب رقيق .. وإنما ترد عليها بكلمة أشد طيشا .. فيرد الزوج بكلمة أكثر عنفًا .. فيتلاحم الصوتان فى « كريشندو » متصاعد ينتهى بدقة الدونج الفظيعة التى تنهال فوق رأسيهما.. أو فوق رءوس أولادهما معًا !.

ونفس الخطأ قد يحدث بين الأصدقاء .. وزملاء العمل .. وبين المارة فى الطريق .. مع أن «النيانس» أجمل .. وأكثر رقة وأقرب للشاعرية .. وأحقن للدماء وأبقى للمودة بين الناس .

« وسوء الخلق شؤم » كما قال الرسول الصادق الكريم ومن أكبر مظاهر سوء الخلق سوء اللسان .. ومرارته وشدته على الآخرين .

وبعض قذائف اللسان أشد إيلامًا من وقع الحسام المهند وما أكثر ما انهارت صداقات .. وتهدمت بيوت بسببها لهذا نصحنا الحكماء بألا نسرف فى الكلام .. لأن الإسراف فيه يقودنا إلى العثرات .. وإلى المهالك .. فقال ابن عباس «إياكم وفضول الكلام» وقال الفيلسوف الإغريقى زينون « لنا أذنان اثنان ولسان واحد لكى نسمع أكثر مما نتكلم » .

وقال الشاعر العربى :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتئم ما جرح اللسان

وكان المهاتما غاندى يصوم عن الكلام يومًا واحدًا كل أسبوع يعفى فيه لسانه من الكلام .. ويطلق العنان لطاقاته الروحية وتأملاته الداخلية .

والكلام الكثير .. لا يورد الإنسان موارد التهلكة فقط .. لكنه يؤخر الحياة أيضًا .. لأنه كلما كثر المتكلمون قل العمل .. وكلما كثر الصامتون زاد العمل وارتقت الحياة فالعاملون دائمًا أقل كلامًا من هواة الكلام العاطلين .. والمتكلمون الجبابرة أقل الناس إنتاجًا .. وعملاً .. ونفعًا للآخرين . لهذا قال الإمام أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب كلام أبدًا وهذا صحيح .. فصاحب الكلام لا يفلح .. ولا يستريح .. ولا يدع غيره يستريح .. ولا يدع الآخرين فى هدوء ولقد عاقب الإسلام على قذائف اللسان عقابًا شديدًا فأقر حدّ القذف على من يرمى المحصنات زورًا فى شرفهن .. واعتبر جرم اللسان هنا جريمة يستحق عليها مرتكبها عقابًا قاسيًا .

وفى رواية «قدر الإنسان» للأديب الفرنسى العالمى أندريه مالرو يقول بطل الرواية : إنه لابد من تسعة أشهر لصنع إنسان .. ثم تكفى دقيقة واحدة لقتله .. ثم يعلق على ذلك بأنه حتى هذه الشهور التسعة لا تكفى لصنع إنسان ناضج وإنما يحتاج الأمر إلى خمسين سنة على الأقل لصنع إنسان يستطيع أن يتعامل مع الحياة . ومع ذلك تكفى دقيقة واحدة لقتله ! .

ومن المؤسف أن هذه الدقيقة قد تأتى أحيانًا من ضربة لسان أحدّ من ضربة السيف !.

وأشهر من لقى مصرعه بسبب قذيفة كلامية طائشة هو ملك الشعراء العرب المتنبى .

فلقد هاجمه قطاع الطرق ففر هاربًا فقال له رفيق له مفلوت اللسان : كيف تفر وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فأحرج المتنبى .. ولوى عنق حصانه وعاد إلى قطاع الطرق وقاتل دون ما له حتى قتل !.

أرأيت إلى أى حد يمكن أن تكون الكلمة قاتلة .. بنفس الدرجة التى يمكن أن تكون بها مرطبة لآلام الإنسان ومداوية لجراحه ؟

إنه هذا العضو الصغير اللعين الذى يتحرك داخل تجويف الفم والذى أطاح بأصحابه فى بعض الأحيان .. وفتح لهم أبواب السعادة والمجد فى أحيان أخرى .

والفارق دائمًا هو فى نوع المحلول الذى تغمس فيه لسانك كل صباح ..

فماذا تختار للسانك يا صديقى بعد كل ذلك ، محلول السكر .. أم نقيع الحنظل ؟.

حلم صباح بارد !

جلست إلى مكتبي لأكتب مقالى الشهرى . أفضل أن أحتجب فى البيت بعيدًا عن زحام مكتب العمل وضجيج الزوار وانتهز عادة فرصة غياب الأبناء فى المدرسة لأكتب فى هدوء الصباح . أعددت أوراقى ورحت أقلب فى صفحات الكتب المحيطة بى من كل جانب وأدور ببصرى فى اللوحات المعلقة حولى عسى أن تلهمنى بفكرة جديدة . تذكرت فجأة الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت الذى كان يمضى أوقات مرضه فى فراشه يقوم « بأسفار ذهنية إلى الماضى » ليحدِّث « أنبل الناس فى سالف العصور » فلمعت الفكرة فى خاطرى .. لماذا لا أقوم أنا أيضًا بأسفار مماثلة .. وما أكثر «أنبل الناس » الذين قرأت عنهم وأريد أن أحدثهم واستفسر منهم عن أشياء كثيرة . استهوتنى الفكرة .. فركبت صاروخ أفكارى وطرت إلى القرن الأول الهجرى .. فرأيت سيد الخلق أجمعين حين جاءه نصر الله يدخل مكة التى أخرجته منتصرًا فى جحافل جيش المسلمين .. فلا يهزه النصر الكبير .. ولا تغريه قوة المسلمين بالبطش بمن آذوه وحاربوه وإنما رأيته تمامًا كما روى المؤرخون يدخل مكة فى عشرة آلاف مقاتل وهو فوق راحلته وقد انحنى

عليها تواضعًا لله وعبودية له .. ودمعه تترقرق فى عينيه شكرًا لله الذى لاحقَّ غيره فيعفو عمن حاربوه وأذوه ويلوم أسامة بن زيد لأنه قتل من نطق بالشهادة بدعوى أنه منافق .. ويقول له «هلا شققت عن صدره لتعرف إن كان صادقًا أم كاذبًا» فاستحييت أن أوجه إليه الخطاب مباشرة وقلت فى نفسى بأبى أنت وأمى يا رسول الله .. أردت لنا ألا نغترَّ بقوة أو بعز لا يدوم فكيف يجد بعض من لا يرقون إلى مواطئ أقدامك فى أنفسهم القدرة على الكبر والغرور بما لا يغنى ولا يفيد ؟! .

عدت من مكة متطهرًا .. فقررت أن أقفز بين الأزمان والأماكن بلا التزام بتسلل تاريخى أو جغرافى .. فرأيتنى فى سجن أبى الفلاسفة سقراط .. وحوله تلاميذه يبكون .. وهو بقدميه الحافيتين ورأسه الضخم .. يرفض الاستجابة لرجائهم له أن يهرب من الموت بعد أن رشوا سجانه ، كما رفض من قبل أن يستبدل حكم الموت ، بالنفى من أثينا وكان ذلك من حقه .. » وأسأله لماذا أيها الفيلسوف الحكيم ؟.. فيجيبنى فى ثقة بما أجاب به قضاته : يجب أن نواجه الموت بشجاعة .. كما واجهنا الحياة !.

فأتعجب كيف قضى عليه القضاة بالموت لأنه نصح شابًا بألا يحترف مهنة أبيه فى دبغ الجلود ليتفرغ لطلب الحكمة والمعرفة .. فيقدمه الأب للمحاكمة ويدينه القضاة بتهمة إفساد عقول الشباب ! ويضيفون إليها تهمة إنه لا يعبد آلهة أثينا .. ويعبد آلهة أخرى من دونها !.

تركت مغارة سقراط .. وطرت إلى بيت من بيوت البصرة فطرقت الباب واستأذنت على صاحبه فى الدخول فأذن فخلعت حذائى وسلمت وجلست على الأرض إلى جواره وقلت له : ما هو سر زهدك أيها الشيخ الطيب ؟ فأجابنى الحسن البصرى بعد تفكير :

علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبى .

وعلمت أن عملى لا يقوم به غيرى فاشتغلت به وحدى .

وعلمت أن الله مطلع علىّ فاستحييت أن يرانى فى معصية وعلمت أن الموت ينتظرنى فاعددت الزاد للقاء ربى .

فقبلت جبهته متبركًا .. وانصرفت .

تكاثرت شخوص أنبل الناس فى سالف العصور الذين أود أن أزورهم وأحادثهم .. فخطر لى أن أدعوهم فى مكان واحد توفيرًا للجهد والمشقة .. ونظرت أمامى فوجدت مقاعد الصالون تتسع لثمانيه أشخاص فقررت أن أدعوهم جميعًا إلى فنجان من القهوة .. ثمانية ثمانية حتى التقى بكل من قرأت عنهم وأحببتهم . فاحتل ديكارت أول مقعد إلى يمينى باعتباره صاحب الفكرة .. وقبل أن أسأله أول سؤال ملأ علينا المكان بطلعته المهيبة الفيلسوف الإغريقى أرسطو ولاحظت عليه أنه ما زال متأثرًا بإحساس الإحباط الذى تولاه حين تخطاه أوصياء أول أكاديمية فى أثينا ولم ينتخبوه رئيسًا لها خلفًا لأفلاطون رغم أحقيته واختاروا لها نكرة لم يسمع به أحد بحجة أن أرسطو ليس من أبناء أثينا ! ! يا إلهى فى كل العصور هناك محظوظون يختارون للمناصب بلا كفاءة على حساب الأكفاء الأذكياء ؟

وفى أعقاب أرسطو دخل الكاتب الايرلندى العظيم برناردشو بقامته الفارعة ولحيته البيضاء ينظر للحاضرين بابتسامة ساخرة .. ونهض الحاضرون لاستقبال المهاتاما غاندى فى إجلال فرد تحيتهم فى تواضع وهو يضم يديه أمام صدره وينحنى لهم .. فقلت له : أيها الروح العظيم ضربت أروع الأمثال فى التسامح حين قلت للمتعصب الهندوكى الذى اغتالك : إنى أسامحك يا أخى وأغفر لك ، فابتسم ولم يجب . فقال برناردشو : حين سمعت نبأ اغتياله كنت فى زيارة جار لى فتألمت وصحت : قلتها مرارًا أن الرجل الطيب .. دائـمًا فى خطر !.

ثم ضجَّ المكان بضحك صاخب حين دخل إليه مندفعًا المؤلف الفرنسى العظيم الكسندر ديـمـاس الأب بحيويته الشديدة وقال متشكيًا فى خفة روح لا تبارى : هل سمعتم بذلك من قبل ؟ أكتب وأؤلف عشرات الروايات التاريخية فلا ينال حتى أشهرُها وهى «الفرسان الثلاثة» و «كونت دى مونت كريستو» بعض شهرة أو تأثير رواية واحدة يكتبها إبنى الكسندر ديـمـاس الابن هى غادة الكاميليا ؟.. حقًا إنه زمن العجائب !.

ثم لا يستسلم للشكوى أكثر من لحظات .. ينطلق بعدها فيروى ضاحكًا عن شاب من الأشراف تفاخر أمامه بأصله ثم سأله عن أصله فقال له ديـمـاس : ولد أبى فى الهند الغربية .. وكان جدى زنجيًا وكان جدى الأعلى قردًا .. ويبدو أن أسرتى قد بدأت من حيث انتهت أسرتك !

وينفجر الضحك ثم يتوقف فجأة احترامًا لمقدم الإمام أبى حنيفة

النعمان يحوطه جلال العلم والاكبار .. فقلت له يا شيخي العظيم .. لم رفضت أن تتولى القضاء فى عهدى الأمويين والعباسيين فضربك الأمويون .. وحبسك الخليفة العباسي المنصور .. وكان بمقدورك أن تعفى نفسك من هذا العناء . فقال فى تسامح : عفا الله عما سلف .. رأونى أصلح له .. ورأيت نفسي غير ذلك ولم أرد أن أدخل نفسى فى خدمة حكومات لا يرضى عنها الله ورسوله فكان ما كان من أمرى . وفى أثره جاء الإمام الشافعى ولاحظ آثار ما أشاعه ديماس الأب من روح المرح فقال فى حكمة : لا بأس من أن تروحوا عن قلوبكم .. ولكن نزهوا أسماعكم عن الاستماع إلى الخنا .. فإن المستمع شريك القائل !.

ثم دخل الغرفة معتزًا بنفسه ملك الشعراء العرب المتنبي .. وفى يمينه أميرهم من بعده أحمد شوقى بوداعته وتواضعه ، وجاء من بعدهما الكاتب الروسى العظيم تولستوى .. وفى يده أعظم القصاصين الروس تشيكوف بنظارته البيضاء .. ونظرته الحزينة .. ثم شرف المكان أعظم شعراء الإنجليزية وليم شكسبير بجبهته العريضة ونظرة الذكاء العبقرية التى تطل من عينيه ثم الإمام البوصيرى فقابلته بهذا البيت من بردته الخالدة

يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة

منى إليك ولو أنصفت لم تلم

ووقفت بين الجميع شاعرًا بالجلال والتهيب .. ورأيت حرصًا على وقتهم أن أكتفى بسؤال كل منهم سؤالاً واحدًا وهممت بأن أوجه سؤالى

الأول .. فإذا بصوت يقتحم عليّ صالون الخيال قائلاً : عايزين لحمة .. قبل الجزار ما يقفل ! فأحسست بمطرقة شديدة تهوى على رأسى والتفت خلفى بلا وعى صائحًا : جزار إيه .. أنا أتكلم الآن مع ديكارت ، وشكسبير .. وتولستوى وتشيكوف .. والبوصيرى .

.. وهبطت من السماء العالية .. إلى الأرض السحيقة !.

عطر الأحبـاء

صائم أنا .

إعتدت أن أبدأ الصيام قبيل الفجر بلحظات .. وأن أبدأ الشعور بالجوع والحاجة إلى تسلية الصيام بما يشغلنى عنه بعد الفجر بلحظات أخرى ! أفضل وسائلى لذلك هى القراءة فى القرآن وكتب السيرة والتاريخ الإسلامى التى أركز قراءاتى خلال شهر رمضان كل سنة فيها .. فأتنقل بين صفحاتها أرشف رحيقها .. وأتشمم من بين سطورها عطر الأحباء القدامى . اكتشف من جديد أنى أطرب لكل آيات القرآن وأضيف إلى فهمى لها فى كل مرة أعماقًا جديدة .. ومع ذلك فإن لبعضها فى وجدانى رنينًا خاصًا لا يتغير مع مر السنين : «إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله» .

لماذا تمس هذه الآية دائمًا قلبى ؟

إنها جزء من آية كريمة فى سورة يوسف جاءت على لسان سيدنا يعقوب حين لامه أبناؤه على حزنه الدائم على ابنه الغائب يوسف حتى أبيضت عيناه .

أقرأ كلمة «بثى» وأحس بمعناها ومع أنى لم أتعرف عليها من قبل

أجد فى حروفها معنى مرتبطًا بالألم الذى يهمس به الإنسان لصاحبه ، فأرجع إلى القاموس فأجد فيه ما يؤكد صدق احساسى : البثُّ : أشد الحزن الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثّه أى يتحدث به !.

عرفت الآن فقط لماذا بكى عمر بن الخطاب حين قرأها بعد أن وُلِّىَ أمر الناس وهو يؤم المصلين فى صلاة الفجر فبكى حتى ابتلت لحيته الشهباء من شدة همه بأمر الناس ! وتفلت منى الخاطرة رغمًا عنى : من لنا فى عالمنا الإسلامى ببعض من يغلبهم البكاء من شدة همهم بأمورنا .

أقرأ سيرة الرسول الكريم فأطرب لكل دروسها وقيمها ومعانيها لكنى أتوقف دائمًا عند بعض مشاهدها التى تؤثر فى وجدانى فأرى بعين الخيال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل بستان بالطائف التى تكبد مشقة السفر إليها ليدعو قبيلة ثقيف إلى دين الله فأنكروا دعوته وشغب عليه سفهاؤهم ، فانتحى جانبًا إلى البستان ورفع رأسه إلى السماء وناجى ربه شاكيًا له : ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس فيئن له القلب المثقل على بعد الذكرى وطول البعاد أو أراه بعد أن نصر الله دينه يمشى وقد لبس ثوبًا غليظًا فجاء أعرابى فجذبه من الثوب بعنف حتى أثر فى عنقه وقال له يا محمد أعطنى من مال الله الذى عندك فيضحك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويأمر له بعطاء ، أو هو بعد أن دفع رجلاً فى بطنه بجريدة من النخل وجاءه الرجل يطلب أن يقتص منه فكشف النبى بطنه للرجل وأعطاه الجريدة ليضربه بها فقبَّل الرجل بطن النبى وقال : بل أردت أن يرتدع الجبابرة

من بعدك . أو أراه وقد بعث يشترى بعض ما يحتاج إليه بيته من يهودى على أن يؤجل الدفع فيرفض اليهودى أن يبيعه قائلاً : ما لمحمد زرع ولا ضرع فمن أين سيسدد ؟

فاهتف صامتًا فلا نامت أعين الجبناء ! أو أسمع أم المؤمنين عائشة حين سئلت كيف كان رسول الله فى بيته فتقول : «كان بشرًا كالبشر يصلح نعله ويرقع ثوبه ويخدم نفسه» أو أجده يقول لرجل ناداه : ياسيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا فيقول له : لا يستهوينكم الشيطان .. أنا محمد بن عبد الله .. عبد الله ورسوله .. والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى أو أراه – واحرَّ قلباه – يبكى ولده وينزف قلبه دمًا ولا يقول ما يغضب ربه وقد سبقه كل أبنائه وبناته إلى دار البقاء ماعدا فاطمة التى لحقت به بعد ٦ شهور من وفاته ، أو أراه يوم غزوة مؤتة يبكى مولاه زيد بن حارثة عند استشهاده وتراه ابنة زيد فتكف عن نواحها وتسأله : ماذا أرى فيجيبها : صديقًا يبكى صديقه . ويسجل الواقعة المفكر الانجليزى توماس كارلايل فى كتابه الأبطال دليلاً على رحمته وعظمته .

.. بأبى أنت وأمى يا رسول الله ..

ما من مرة قرأت فيها هذه العبارة .. إلا وجاش صدرى بالانفعال وأنا أتخيل الصحابة الأكرمين يهتفون بها من قلوبهم فى بعض المواقف ، فتكثف فى كلمات نبيلة كل معانى الفداء والايثار والوفاء والحب . وينقلنى حديث الوفاء إلى حديث الأحباب من صحابة رسول الله .. فأجدنى أكن حبًا خاصًا لأبى بكر وحكمته وورعه ورحمته

ومن بين كل أحواله تقفز دائـمًا إلى مخيلتى صورته حين هرع إليه بعض رجال قريش عقب معجزة الإسراء والمعراج يقولون له : صاحبك يزعم أنه سرى بليل من مكة إلى القدس فيجيبهم مطمئنًا : إن كان قال فقد صدق ! ثم يستطرد : إنى صدقته فى خبر السماء فكيف لا أصدقه فيـما يخبركم به ؟ فيكتسب أبو بكر اسمه الذى اشتهر به .. الصدِّيق الذى يصدق صاحبه فى كل ما يقول ويبلغ ، أما أرق أحواله عندى فهو حين ذهب الرسول إليه فى بيته يبلغه أنه قد أمر بالهجرة فلا يجيبه أبو بكر إلا بالبكاء وبكلمة واحدة معبرة عن كل المعانى هى : «الصحبة» .. يا رسول الله ..، فيخرجان معًا بأمر ربهما .

وتستغرقنى قراءات رمضان فأتأكد أكثر من أى وقت مضى من أنى مفتون بشخصية عمر بن الخطاب .. الذى «يخافه الشيطان» كما قال له مداعبًا الرسول الكريم ـ فأحب فيه شدته فى الحق وعدله بين الناس وتسوّيته بين الجميع وأتابع بإنبهار شديد درته أى مقرعته وهى تضرب ظهور المتزمتين والمتكلفين .. والمنافقين وأقول ما أحوجنا إليها الآن فيجيئنى صوتها من بطون الكتب نغمًا ساحرًا وهى تضرب رجلاً وجد تـمرة على الأرض فطاف فى السوق يرفعها ويصيح لمن هذه التـمرة الضائعة ؟ حتى جاءه صوت عمر مع صوت درته قائلاً : كلها يا ذا الورع البارد .. ليس هذا ورعًا إنه التكلف !.

أو أتابعها وهى تقرع ظهر رجل رأه عمر يسير متماوتًا فسأل عنه فقيل له إنه ناسك فعلاه بالدرة وقال له : إعتدل ولا تمت علينا ديننا .. إن الخشوع مكانه القلب لا الوجه .. أما هذا فنفاق ! ، وغير ذلك كثير .

أحب فى عثمان حياءه الذى قال له عنه الرسول ما معناه : إن الملائكة لتستحى منك يا عثمان .. واجفل كلما تذكرت مصرعه وهو صائم محصور فى بيته مأسوف عليه من كل قلب مؤمن .

وأحب فى على سبقه للايمان وعلمه وورعه وشجاعته وعدل قضائه وبلاغته ثم أقفز واسعة إلى عصر عمر بن العزيز .. فيتكرر إعجابى بعدله وزهده .. وأعجب له كيف بدأ عهده بإلغاء مبدأ التجريم بسبب الخلاف فى الرأى ، ومازال بيننا بعد هذه القرون من لايزالون يعتمدون مبدأ تجريم الخلاف فى الرأى ، وأعجب لثورته الاجتماعية التى رسخ بها مبدأ أن الدولة مسئولة عن كل فقير ومحتاج ومريض وأن دورها هو أن تعطى لا أن تأخذ .

أما قمة إعجابى بعقليته المتفتحة فيجىء حين أقرأ ما رواه عنه أبو حيان الوحيدى فى كتاب «الامتاع والمؤانسة» : «وأفضل من ذلك قول عمر بن عبد العزيز ذات مرة : والله أنى لأشترى المحادثة «أى الحوار والمشورة وتبادل الرأى» من عبيد الله بن عبد الله بن مسعود بألف دينار من بين مال المسلمين !، فقيل له : أتقول هذا يا أمير المؤمنين مع شدة تحريك وتنزهك ؟ فقال عمر : أين يذهب بكم والله أنى لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف الدنانير .. إن فى المحادثة تلقيحًا للعقول وترويحًا للقلب وتنقيحًا للأدب وتسريحًا للهم» .

.. عسى أن أكون قد سرّحت بعض همك .. كم الساعة الآن من فضلك ؟

نماذج .. من البشر

أفكر جديًا فى عرض نفسى .. على طبيب نفسى !

إنىِّ أحب أشخاصًا لم أعرفهم ولم ألتق بهم وليسوا من الأعلام أو المشاهير الذين قد نقرأ عنهم فنحبهم بلا سابق معرفة .. فهل عندك تفسير لهذه الحالة ؟ سوف تسألنى بالطبع كيف إذن أحببتهم بغير أن تعرفهم فأقول لك إننى غالبًا أكتشفهم فى بطون كتب السير الذاتية للمفكرين والأدباء فأتوقف عند بعض النماذج البشرية التى ألتقوا بها فى رحلة الحياة وتأثروا بها فأسرع بالتقاطها وتسجيل ملامحها فى أوراقى وأحس بعلاقة إنسانية تربطنى بهم تتراوح عادة بين الإعجاب بهم .. والعجب منهم .. وحين جلست لأكتب مقالى هذا تراءت لى بعض هذه النماذج ففكرت فى أن أقدمها إليك .

واحد منهم لم أعد أذكر الآن أين قرأت عنه لكنى ضممته إلى قائمة أصدقائى منذ زمن طويل اسمه الشيخ حسن الطويل وكان من علماء الأزهر فى أواخر القرن الماضى .. ومن العلماء المتنورين التقدميين فى وقت يغلب فيه على الأزهر الجمود .. وكان يقرأ الفلسفة وعلى معرفة بالرياضيات ويحلُّ لطلبة دار العلوم ما يستعصى عليهم حله من

التمرينات الهندسية وكان ذكيًا وحكيمًا وذا نظرات صائبة فى الحياة وعلى معرفة بالدنيا والسياسة وشجاعًا فى الرأى يتكلم بما يعتقد ولو أدى ذلك إلى فقده لمنصبه وكان معتزًا بنفسه اعتزاز العلماء الأصلاء بعلمهم رغم فقره وزاهدًا فى الدنيا يرتدى قفطانًا من البفتة الرخيصة وجبة من نفس القماش .. وينبهه زملاؤه ذات يوم إلى أن على باشا مبارك وزير المعارف سوف يزور دار العلوم ويرجونه أن يرتدى ملابس لائقة بالاستقبال فيغضب لكرامته ويقول لهم : إذن سأبعث لكم بجبة من الصوف وقفطانًا من الحرير ليكونا فى استقبال الباشا .. أما إذا أردتم حسن الطويل فهذه هى ملابسه ! وكان كلما دعى إلى موائد الأغنياء فى رمضان لا يذوق منها إلا الفول المدمس ويصادق صاحب مقهى بلدى من جيرانه ويخلص كل منهما الود للآخر .. ثم يطرد من منصبه بدار العلوم بسبب كلامه فى السياسة فينقطع مرتبه وهو مورده الوحيد .. فلا يتردد صاحب المقهى الشهم وهو أيضًا من أصدقائى فى أن ينهض لأداء واجبه كصديق ويقوم بالانفاق على الأسرتين معًا ويبعث بصبيه كل يوم ليشترى لوازم بيته وبيت صديقه بالتساوى ، ويقبل الشيخ مساعدة صديقه لأنه ليس بين الأحباء حرج فى حين يرفض مساعدة أثرياء عصره لأنها إعانة تأباها نفسه الحرة كعالم ثم يعود الشيخ إلى عمله فإذا قبض مرتبه سلمه لصديقه بأكمله لينفق منه على البيتين كما كان يفعل وهو مطرود .. ويصر على ذلك لفترة مساوية تمامًا لشهور الأزمة التى أعانه فيها صديقه .

ويواصل إلقاء محاضراته فى الأزهر فى الفلسفة والمنطق ويحضر

دروسه نخبة من التلاميذ من بينهم الإمام محمد عبده ، ويتهمه المتحجرون بالزندقة هو وتلاميذه فلا يأبه لهم ويطالب تلاميذه بألا يلقوا إليهم بالا وبأن يواصلوا طريق المعرفة بلا خوف من اتهام وبأن يحكموا العقل دائمًا فى كل ما يعرض لهم فلا يقبلوا مما يقرأون إلا ما يقبله ويرفضوا ما يرفضه .. ولو كان مطبوعًا بماء الذهب .. ويضحك من أعماقه حين يروى له الإمام محمد عبده إنه غضب فى شبابه على كتاب من الكتب الصفراء قرأه ولم يعجبه فأوقد فيه النار وطبخ به عدسًا فكان ألذ عدس أكله فى حياته .. فيقول له الشيخ الطويل : أتعرف لماذا كان شهيًا .. لأنه طهى بنار الجهل !.

أما هذا الصديق فأمره عجيب حقًا .. فقد تعرفت عليه من ابنه فى كتابه الفريد «سجن العمر» .. إنه المستشار إسماعيل الحكيم والد الأديب الكبير الذى ظلمته جائزة نوبل وتجاوزته .. توفيق الحكيم وقد رسم له الأديب الكبير صورة فريدة كما يكتب الأدباء عن شخوص حياتهم بلا حرج فقد كان صاحب خبرات عجيبة ومتنوعة فى كثير من مجالات الحياة ويحرص على أن يتغلغل فى تفاصيل الأشياء كأن كل ما يصادفه فى الحياة قضية معروضة عليه لابد أن يدرس كل جوانبها قبل أن يصدر الحكم فيها وهو يعرف بالضبط كم طوبة تلزم لبناء غرفة من حجم معين ، وكم كيلو من البذور تلزم لزراعة فدان بالقطن أو القمح .. ويقرأ فى القانون والطب والأدوية والنجارة والحدادة والعطارة واللغة العربية والنحو والشعر وقواعده وبحوره ، وفى شبابه ابتكر سيجارة محشوة بأوراق شجر الفاكهة بدلاً من التبغ !.. ويحمل

ساعة يد يقدمها عشر دقائق لكى تكون لديه دائـمًا عشر دقائق مدخرة للطوارئ .. وإذا سار مع ابنه الشاب فى الشارع توقف فجأة ليسأل ترى ما هو عرض واجهة هذا البيت أو ما هو عرض هذا الشارع ثم يشرع فى قياسه بعصاه التى يحملها دائـمًا والمضبوطة بدقة على المتر الهندسى الأصلى بمصلحة المساحة !.

ويسأله ابنه لماذا .. هل سنشترى هذا البيت فيجيبه متعجبًا : مجرد معرفة يا أخى .. كل شىء تعرفه فى الحياة يفيدك ذات يوم !.

وهذا صحيح لكنه لم ينطبق كثيرًا على تجاربه العملية إذ أنه مع كل هذه المعارف والخبرات كان إذا أقدم على تنفيذ فكرة من أفكاره غرق فيها وغرقت معه الأسرة فى بئر بلا قرار فلقد كان للأسرة بيت بالاسكندرية ورأت ذات يوم أن تجرى فيه بعض التحسينات ورفض الأب أن يستعين بمهندس لأنه يعرف كل شىء .. فما أن بدأ العمل ذات يوم كما كتب توفيق الحكيم «حتى أصبح البناء والهدم فى منزلنا شيئًا طبيعيًا ومستمرًا كالأكل والشرب ولمدة أعوام طويلة فلقد أحضر أبى البنائين والنجارين وصار يقول لهم شقوا هنا دهليزًا وأزيلوا من هنا جدارًا فما أن يفعلوا ما أمر حتى يجد أن الباب بدلاً من أن يفتح على الردهة قد فتح على المرحاض وأن الجدار الذى أزيل قد جعل المطبخ فى الصالون ! فيعود يأمرهم من جديد بسد ما فتحوا .. وانتهى بنا الأمر إلى أن صار البناؤون والنجارون والمبيضون مقيمين لدينا إقامة مستمرة لأن العمل لا ينتهى ولا يمكن أن ينتهى فاتخذوا لأنفسهم حجرة قرب باب الحديقة يقطنون بها ويبيتون ويسمرون ويأتى لزيارتهم

فيها الأهل والأصدقاء ! » .

ولا تنتهى الملامح العجيبة التى يرسمها قلم الأديب الكبير لأبيه ثم تجيء النهاية ويمرض الأب ويرقد فى المستشفى وتشرف على تمريضه ممرضة يهودية ويفتح عينيه ذات مرة فيرى الممرضة ويرى على الحائط تمثالاً صغيرًا للسيد المسيح فلا تفارقه روح الدعابة . والمشاغبة الفكرية فيشير للتمثال ويقول لها باسمًا : ألستم أنتم الذين أردتم صلبه .. فتضحك الممرضة وتلتفت إليه فإذا به قد أسلم الروح !.

أما الصديق الثالث فلقد تعرفت عليه فى كتاب «حياتى» للأستاذ أحمد أمين ، وكان يعتبره أستاذه الثانى فى الحياة بعد أبيه ، ولم يكن أستاذًا أزهريًا ولا مستشارًا خطيرًا وإنما كان مدرسًا للغة العربية بمدرسة رأس التين الثانوية حين عمل أحمد أمين لفترة من حياته مدرسًا بالاسكندرية ، وكان من هؤلاء البشر الذين يثبتون صحة كلمة الكاتب الروسى الكبير انطون تشيكوف من أن «الإنسان الشريف مهما كان شأنه لا يمكن أن يكون تافهًا أبدًا» وهذا صحيح تمامًا فليس ضروريًا أن تكون صاحب منصب أو جاه لتكون إنسانًا محترمًا وذا شأن فى الحياة وإنما يكفى أن تكون إنسانًا شريفًا فلا تحس أبدًا بضآلة الشأن وتحترم نفسك فيحترمك الآخرون وتضيف إلى الحياة بسلوكك الجاد القويم .. بلا مناصب ولا جاه فلقد كان الشيخ عبد الحكيم بن محمد ممن تخرجوا فى دار العلوم ، وكان من هؤلاء الذين يفرضون على الآخرين احترامهم بشجاعة رأيهم واباء أنفسهم ، وكان كما قال أحمد أمين يعتمد فى دروسه على الحب لا على الارهاب ويحبه تلاميذه

وزملاؤه لاباء نفسه وترفعه عن الصغائر ويترك لتلاميذه حرية الحديث والنقد ولم يكن مدرس لغة فقط وإنـما كان مدرس تفكير ونقد للمجتمع يشجع الآخرين على التفكير والخلاف معه فى الرأى ويفرق بين خلاف الرأى والخلاف الشخصى فيحترم مخالفيه ويحبهم لترفعه وسعة فكره ، وكان متصوفًا يعتنق الطريقة النقشبندية وهى طريقة ليس لها شعائر ولا تقاليد ظاهرة للناس .. فالنقشبندى إذا ذكر الله ذكره بقلبه لا بلسانه وكان مع تصوفه لا يؤمن بالخرافات ويتذوق الموسيقى والشعر والأدب ويلتزم فى حياته بالصدق فلا ينطق إلا صدقًا وإن أذاه ذلك .. حتى أطلق عليه تلاميذه هذا الاسم الفريد الذى يترجم ضحكه المصرى واعجابه بمن يراه أهلاً للاعجاب : .. الشيخ الإنجليزى !.

.. وانتهت المساحة قبل أن أقدم لك المزيد من أصدقائى المجهولين فهل تنصحنى بالاستمرار فى البحث عنهم والاعجاب بمن يستحق الاعجاب منهم أم ترى معى أن زيارة الطبيب النفسى قد أصبحت واجبة !.

نماذج أخرى !

هل تريد أن تتعرف على المزيد من أصدقائى المجهولين الذين التقطهم من بطون الكتب . وأعتبرهم أصدقاء لى فى الخيال ؟

حسنا .. سأقدم لك عددا آخر منهم وأرجو أن تلتمس لى بعض العذر فى هذه الهواية الغريبة ، فحين يعز الأصدقاء الحقيقيون أو تباعد بيننا وبينهم الحياة والمسافات فلا بأس من التماس السلوى مع أصدقاء الخيال !

واحد آخر من هؤلاء تعرَّفت عليه منذ سنوات بعيدة فى الجزء الثالث من أحبٍّ كتب الدكتور طه حسين إلىّ وهو سيرته الذاتية « الأيام » وقد كتب عنه أنه كان زميلا له فى دراسة الليسانس بالسوربون فى باريس وأنه كان شابا مجتهدا طيب النفس يدرس ويكد لكنه يعانى من عقدة مع اللغة اللاتينية وقد تقدم للامتحان أكثر من مرة فما أن يمسك بورقة اللاتينية التى ينبغى عليه أن يترجمها إلى الفرنسية ويقرأها حتى ينهض ويسلم ورقة الإجابة بيضاء من غير سوء وهو يردد لنفسه بيتا من الشعر اللاتينى عن اليأس والرجاء وينصرف غير محبط ولامنهار وهو يؤكد لنفسه أنه لابد من نيل درجة الليسانس وإن طال العناء ، ثم يعيش حياته العادية بلا حزن ولا اكتئاب ويواصل دراسته

فى انتظار الفرصة القادمة ، وفى إحدى هذه المرات تقدم معه طه حسين للامتحان وكان قد تزوج قبلها بشهور وأقام فى شقة متواضعة بالدور السادس من بيت ليس به مصعد بالقرب من السوربون ، فكرر الصديق نفس القصة وغادر الامتحان يردد بيت الشعر اللاتينى .. أما طه حسين فقد واصل الامتحان .. وانتظر نتيجة الليسانس مشفقا من الفشل وذات مساء كان فى شقته الصغيرة .. حين ظهرت نتيجة الامتحان ونجح هو ورسب صديقه ، فإذا بهذا الصديق الوفى يقطع المسافة بين السوربون وبيت طه حسين جريا ويصعد الأدوار الستة قفزا ويدق الجرس فتفتح له الباب زوجة صديقه فيزف إليها البشرى فى سعادة طاغية وهو يلهث ويرفض الدخول ليستريح وإنما يستدير من فوره ليهبط الدرج مسرعا .. فتلاحقه بكلمات الشكر وهو يهبط ثم تتذكر أنه زميل زوجها فتسأله عن نتيجته فيجيبها بنفس النبرات المبتهجة التى أبلغها بها خبر نجاح شريك حياتها : رسبت .. ولكن غدًا يوم جديد ! وتعود الزوجة الشابة إلى زوجها متعجبة لهذه الروح العالية وتتمنى لزميل زوجها التوفيق ، أما هو فإنه يواصل كفاحه بلا ملل .. وبلا لوم للظروف .. وبلا إحساس بالنقص .. وبلا غيرة ممن تقدموا عليه وكان هو من قبل يتقدمهم .. لأنه لا لوم إلا لنفسه ويتقدم للامتحان مرة بعد مرة حتى إذا تسلم ورقة اللاتينية ذات امتحان يعرف على الفور أن يومه المنتظر قد جاء فلا يتركها إلا وقد أتم ترجمتها على أحسن ما يرام وينال درجته التى طال انتظاره لها واستحقها بكفاحه وصفاء نفسه وترفعها على الحقد والغيرة والكراهية ثم ينفتح الطريق بعد

ذلك أمامه ويحصل على الدكتوراه ويعود لبلاده ليعمل أستاذًا فى جامعاتها وقد اقترن اسمه باسم الجامعة التى أمضى سنوات طويلة وهو يجاهد ظروفه فيها لينال شهاداتها .. فإذا باسمه الذى يتصدر مؤلفاته العلمية ومقالاته بعد ذلك وإلى أن يرحل عن الحياة هو الدكتور صبرى السوربونى !.

ترى أما زال فى الحياة من يواجهونها بهذه النفس العالية .. المتطهرة من الأحقاد والصغائر .. والتى لا تنصرف عن أهدافها إلى لوم الآخرين أو الحقد عليهم ؟

أما هذا الصديق فهو ليس شخصية حقيقية ، وإنما شخصية نسجها قلم الروائى والشاعر الفرنسى العظيم « فيكتور هوجو » فى رواية لم تنل شهرة باقى أعماله هى رواية «الكادحون فى البحر » ففى هذه الرواية روى هوجو قصة طويلة عن شاب اسمه جيليات أحب فتاة جميلة إسمها دورشيت حبًا صامتًا بلا أمل ثم جاءته الفرصة حين أعلن عمها الثرى وولى أمرها عن مكافأة لمن يغوص فى البحر ويستخرج ماكينات سفينة له غرقت قرب الشاطئ. فيكون له الحق فى أن يتزوج دورشيت ، فيتقدم جيليات للمهمة الصعبة ويكابد أهوالاً مريرة فى الغوص إلى قاع البحر وينقذ خلال محاولته الأولى قسيسًا شابًا من الغرق ، ثم يصل بعد كفاح مرير إلى السفينة الغارقة ويستخرج منها صندوقًا من المال ، كان صداق دورشيت قبل أن تغرق السفينة ، ويعود جيليات حاملاً المال سعيدًا ليزف البشرى إلى دورشيت وعمها .. فيلمح فى النافذة حبيبته تعانق القسيس الشاب الذى أنقذه

من الغرق ، فيعرف أن قلبها قد اختاره وأنه لا مكان له فى قلبها .. فيسلم المال للعم ويرجع ويترك دورشيت لهواها ويتنازل عن حقه فى الزواج منها ، وتتزوج فتاته الجميلة من حبيبها ويرحلان معًا بالسفينة إلى إنجلترا .. ويحرص جيليات على أن يلقى عليها النظرة الأخيرة فيقف على صخرة فى الماء يرقب سفينة حبيبته وهى تبتعد رويدا رويدا .. ويرتفع المد فيصل الماء إلى ركبتيه وهو مستغرق فى النظر للسفينة المبتعدة ، ثم إلى وسطه ، ثم إلى كتفيه ثم يغطيه الماء تمامًا ويغرق جيليات بلا مقاومة .. بلا مقاومة راضيًا بأنه إن لم يكن قد نال يد حبيبته .. فقد كسب ما يعوضه عنها .. وهو سعادتها ! فرحمة الله عليك يا صديقى جيليات فما من مرة قرأت هذا الفصل الأخير من قصتك إلا وتندت عيناى بالدمع ليس أسفًا عليك فقط .. وإنما أيضًا على قلة أمثالك فى الحياة ممن يعرفون أن فى التضحية لمن تحب بعض السعادة .. وربما فى بعض الظروف كل السعادة !.

وصديق هذا من شخصيات التاريخ الحقيقية لكن كتبه لا تذكره كثيرًا لأنه لم يحكم سوى أربعين يومًا أنه معاوية بن زيد ثالث خلفاء بنى أمية ، وابن الخليفة الضعيف اللاهى يزيد وحفيد معاوية بن أبى سفيان أول ملوك العرب بعد الإسلام وأكثرهم دهاء ، فقد مات « يزيد الفجور » كما روى عنه بعض المؤرخين ، واستخلف ابنه معاوية بعد أن أصبحت الخلافة مُلكًا يتناقله الأبناء ، وكان معاوية شابًا صالحًا تقيًا .. جاءته الخلافة وهو مريض فاستمر مريضًا ولم يخرج إلى الباب ولم يصل بالناس ولم يضع بردة الملك ، ثم جاءته المنية واحتضر وطلبوا

منه أن يستخلف أحدًا من بنى أمية من بعده فرفض أن ينكب المسلمين بأحدهم وهو لا يعرف ماذا سيكون من أمره مع الناس .. وألحوا عليه فقال كلمته التى ما إن أقرأها كل مرة حتى تذوب نفسى حبًا له وأسفًا عليه : «ما أصبت من حلاوتها .. فلماذا أتحمل مرارتها ؟» يقصد أنه لم يذق حلاوة الملك فلماذا يتحمل أمام الله وزر اختيار من قد يظلم الناس بعده ؟، ثم يموت معاوية بعدها ـ لهفى عليه ـ وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، ولو امتد به العمر لكان خامس الخلفاء الراشدين ولكان جوهرة بنى أمية عمر بن عبد العزيز هو سادسهم ..

وعفوًا لهذا الجو الحزين رغما عنى .. فلأخرج منه إذن بتقديمى إليك صديقى الجديد هذا .. إنه أيضًا من أصدقاء الخيال لكنى أرى له فى الحياة أشباهًا كثيرين .. إنه ذلك الفتى الصعلوك ضئيل الجسم الذى نسجه قلم أديبنا الكبير نجيب محفوظ فى كتابه «حكايات حارتنا» فلقد روى عنه إنه كان فتى ضائعًا يمضى أوقاته بلا عمل مع ثُلْة من الصعاليك من أمثاله وقد فتن بإحدى جميلات الحارة فاتفق مع زملائه على تمثيلية ينال بها إعجابها ، فتقدم بعضهم لمضايقتها ، ثم جاء البطل المنقذ عباس الجحش .. فصرعهم بضربة واحدة .. وفروا أمامه كالجرذان فأحست بالإكبار له .. ونشرت قصة «بطولته» عند أسرتها وفى الحارة ، وفوجئ الجحش بصبى المقهى يستقبله مرحبًا «بالمعلم» .. فتوة الحارة فدارت رأسه وصادف ذلك خلو الحارة من فتوة بعد مصرع آخرهم فسأل نفسه ولم لا ؟ فاصطحب الصعاليك رفاقه وتقدم إلى المقهى وجلس فى صدارته فإذا بالجميع يحيونه

ويحترمونه .. ويؤدون له الأتاوات ! وطابت الدنيا لعباس الجحش .. ونعم بعز الفتونة وجاهها .. وتقدم لخطبة فتاته فأجيب بالقبول على الفور وعقد قرانه عليها وتحدد موعد الزفاف والزفة التى لابد منها لتتويج بطولته ، وسار عباس فى مقدمة الزفة ومن حوله الرجال والشموع .. وعند إحدى الحارات أفاق فجأة من الحلم السعيد على الواقع المر .. لقد تصدى له فتوة حارة العطوف .. وشهر نبوته يتحداه .. فتوة حقيقى .. وليس وليد المصادفة مثله .. وأصبحت فتونة عباس الجحش وحياته فى الميزان .. فطارت السكرة وجاءت الفكرة .. وترقب أصدقاؤه ماذا سيفعل صديقهم ، فإذا به يفاجئهم ويتقدم بجسارة غريبة ويلوح بنبوته .. فتتوقف القلوب تترقب المجزرة القريبة .. وواصل عباس جرأته الشيطانية .. وتقدم صوب فتوة العطوف .. ثم توقف لحظة وفجأة أطلق ساقيه للريح منحرفًا فى حارة جانبية .. ومودعًا حلم الفتونة الكاذب إلى الأبد وناجيًا بحياته .. واختفى من الحارة فلم يعثر له بعدها على أثر .. ويظل قرانه معقودًا إلى أن يسقط بمضى المدة وأصبحت حكايته الغريبة .. نكتة تروى ، وعبرة لكل موهوم .

ترى كم «جحشًا» رأيته فى حياتك .. توهم فى بعض الأوقات أنه بطل ضرغام لأن بعض الظروف قد أوهمته بذلك ، فإذا ما تعرض لاختبار حقيقى تهاوى واندحر وتحول إلى فأر صغير؟ وترى كم من هؤلاء يذكرك بكلمة فولتير الخالدة : «كثيرًا ما رأيت عصفورًا يطير وراء نسر وفى اعتقاده أن النسر إنما يفر منه !». فتتعجب كثيرًا مما قد يصنعه الحمق والغرور ببعض العصافير أو بعض «الأجاحيش» !.

صديقى ألكسندر !

أريد أن استأنف سلسلة مقالاتى التى أعرِّفك فيها ببعض الشخصيات الأدبية والتاريخية التى اكتشفتها من خلال قراءاتى المختلفة وأحببتها واعتبرتها من أصدقاء الخيال الذين أتذكرهم كثيرًا وأضحك لمفارقاتهم أحيانًا وأأسف لآلامهم فى أحيان أخرى، ومنذ فترة طويلة والرغبة تلح علىّ فى أن أقدم لك واحدًا من أحب هؤلاء الأصدقاء إلى قلبى هو الروائى الفرنسى العظيم ألكسندر ديماس الأب ، مؤلف رواية الفرسان الثلاثة .. ورواية كونت دى مونت كريستو التى عرفتها السينما العربية باسم «أمير الانتقام» وغيرها من الروايات الشهيرة ، وهو شخصية فريدة فى إنتاجه .. وفى حياته الشخصية العجيبة فحين ولد صاح أبوه معجبًا : يا إلهى لقد أنجبت طفلاً كأنه رجل ؛ فقد كان وزنه تسعة أرطال وطوله ١٨ بوصة ، «أى حوالى نصف متر» ويتمتع بقوة جسدية كبيرة . وفيما بعد وصفه أحد النقاد فقال عنه أنه كان قوة من قوى الطبيعة لا أحد يماثله فى جريان قلمه بسهولة كأنما لا يكتب !

وليست هذه فقط أهم ملامحه .. فلقد كان حصانًا جامحًا فى كل

شيء يعمل كثيرًا .. ويضحك أكثر ويستمتع بالحياة ويمتع أصدقاءه بأحاديثه ويشارك فى الحياة العامة والدفاع عن الحريات ويشجع ابنه الكاتب الشاب ديماس الابن وينافسه !

فى بداية حياته جاهد طويلاً ليقدم أولى مسرحياته للمسرح الفرنسى ثم كتب مسرحية عن ملكة السويد كريستيانا وقبلها المسرح أخيرًا وبدأت بروفاتها وبدأ ديماس يستعد لجنى ثمرة كفاحه فإذا بمؤلف مسرحى عجوز ظل طوال حياته يحاول بلا طائل أن يقدم إحدى مسرحياته للمسرح قد كتب مسرحية عن نفس الملكة وقدمها لنفس المسرح . فماذا يفعل ديماس ؟ لقد سحب مسرحيته بكرم شديد قائلاً : فلنعط الزميل العجوز فرصته لأن يقول كلمته الأخيرة على المسرح قبل أن يودع الحياة ! ولم يحزن ديماس ولم يقلل ذلك من فرصته ككاتب مسرحى فقد قدم له المسرح بعدها عشرات المسرحيات الناجحة .. فمن يفعل مثلما فعل هذا الفنان العجيب الآن ؟

ثم هو دائم الصخب والبهجة والاستمتاع بالحياة حتى فى أشد ظروفه معاناة وضائقة اقتصادية يدخل الصالونات الأدبية فى باريس فيثير عاصفة من الضحك بتعليقاته الذكية ـ وإيماءاته اللاذعة ـ ولا يبدأ أحدًا أبدًا باساءة لكنه يستطيع دائمًا أن يرد على من يحاول الاساءة إليه بما يسكته !

يقول له الأديب الفرنسى أونوريه بلزاك «وكان يعتبر الكتابة للمسرح أقل قيمة أدبية من كتابة الروايات الأدبية» : حين يجف نبع موهبتى سأكتب التمثيليات للمسرح ، فيرد عليه ديماس «بأدب» إذن

فابدأ على الفور أولى مسرحياتك !

وتقول إحدى ممثلات مسرحياته بعد اسدال الستار وسط تصفيق الجمهور لقد صنعت نجاحى .. فكيف أرد إليك جميلك ؟ فيقول لها : هكذا ثم يتزوجها !

ويفتر نجاحه المسرحى قليلاً فلا ييأس ولا يستسلم للفشل والاحباط وإنما يطرق بابًا جديدًا هو تأليف الروايات التاريخية فيصبح بعد قليل من أشهر كتابها ويكتشف فى التاريخ كنزًا يحول وقائعه الجافة إلى روايات شديدة المتعة والإثارة .. ويغير ويبدل فى وقائع التاريخ لتنسجم مع البناء القصصى وينتقده لذلك أحد النقاد فيقول له ببساطة : لا بأس بأن تعتدى على التاريخ بشرط أن تنجب منه طفلاً ! يقصد بشرط أن يثمر ذلك عملاً أدبيًا له قيمة !

وهو حين يكون مشغولاً بكتابة رواية جديدة يكتب واقفًا من الساعة السابعة صباحًا إلى السابعة مساء بلا توقف ويرد على تحية أصدقائه ملوحًا بيده اليسرى ويده اليمنى مستمرة فى الكتابة ويعايش شخصيات روايته فى خياله ، ويزوره أديب إنجليزى وهو منهمك فى الكتابة فيسمعه من خارج غرفة مكتبه يضحك ضحكة صاخبة فيسأل خادمه عمن معه فى المكتب فيجيبه : لا أحد .. إنه يكتب ويضحك على النكات التى يطلقها أبطال روايته !

ورغم إنتاجه الغزير فبيته لا يخلو أبدًا من ضيوف على الغداء .. أو العشاء ، ومائدة طعامه يجلس إليها دائمًا ١٢ أو ١٥ ضيفًا ، وهو يتقن الطهى ويتفنن فيه ويدعو أصدقاءه فى أيام الاجازات للاقامة عنده

ويرسل إليهم خادمه فى الصباح برسالة منه : سيدى يسألكم ماذا تريدون من أنواع الطعام للغداء اليوم حتى لا تظنوا إنه لا يجيد سوى طهى الأنواع التى يقدمها لكم !

وهو يربح كثيرًا وينفق أكثر وتحاصره الديون ويتردد عليه محضر المحكمة مرارًا باعلانات الحجز سدادًا للديون المتأخرة حتى كره المحضرين من أعماقه ! ثم يجيئه صديق ذات يوم يسأله المعاونة فى نفقات دفن رجل مات بلا عائل فيقدم له ١٥ فرنكًا ثم يسأله عنه ويعرف إنه كان محضرًا بإحدى المحاكم .. فيخرج من جيبه ١٥ فرنكًا أخرى يعطيها له قائلاً : إذن فأدفن معه محضرًا آخر ، لكن ديماس عاشق الحياة يواجه منافسة شديدة لم يحسب لها حسابًا من قبل لقد أصبح ابنه الشاب كاتبًا مسرحيًا مرموقًا ، وكتب وهو فى الثامنة والعشرين من عمره مسرحية غادة الكاميليا فإذا بها تطغى على شهرة كل أعمال أبيه وتؤثر على بريقها ويصبح ديماس الابن حديث المجالس الباريسية .. وتتوزع مشاعر الأب الفنان بين الفخر بابنه والغيرة من نجاحه الأدبى فيحل هذا التناقض بطريقته العجيبة .. فيحتفظ لابنه فى قلبه بكل الحب والفخر بنجاحه الأدبى .. ويطلق لسانه اللاذع متشكيًا من عجائب الزمن التى جعلت من هذا الشاب الصغير أشهر من أبيه ؛ فيقول : لقد أنجبت ولدًا فتحول إلى ثعبان ! ويرد الابن : لقد كان لى أب فتحول إلى طفل ! وصالونات باريس تضحك لهذه المعركة الأدبية العجيبة وتتابع بشغف محاولة كل منهما أن يتفوق أدبيًا على الآخر ولا تعجب لما يكنه كل منهما لصاحبه من حب يصل إلى ما يشبه العبادة ولا لفخر كل منهما

« سرًا » بصاحبه أما فى الصالونات الأدبية فكل منهما يتحدث عن نفسه فقط !

ويشارك ديماس الأب فى ثورة غاريبالدى بايطاليا وهو فى الثالثة والستين من عمره ويعود فيستقبله ابنه فى المحطة ويطلب منه أن يعود معه إلى البيت ليستريح لكن الأب الجامح يصطحبه قسرًا لزيارة الشاعر الفرنسى جوتييه فى منزله .. ويوقظه من نومه ولا يغادره إلا فى الرابعة صباحًا ، ويدخل الابن فراشه أما الأب الفنان فيجلس إلى مكتبه ليكتب ثلاث مقالات لثلاث مجلات مختلفة .. وأخيرًا يلقى الحصان الجامح بقلمه ليستريح بعد طول عناء .. فيتوجه وهو فى الثامنة والستين من عمره إلى بيت ابنه ويقول له : « جئت إليك لأموت » ! ثم يمضى أيامًا فى الفراش رافضًا الكلام..فيحزن أصدقاؤه ويقولون إن عقله قد اضمحل .. لكن الابن المفتون بأبيه يرد بآباء : إن عقلاً كعقل أبى لا يمكن أن يضمحل .. فإن كان يرفض الكلام بلغتنا الآن .. فإنما ذلك لأنه قد بدأ يتعرف على لغة الخلود !

ألست محقًا فى حبى لشخصية ديماس الأب ، وفى إعجابى بهذه العلاقة الفريدة بينه وبين ابنه ؟!.

الأستاذ مريضًا

من أمتع فصول كتاب الأستاذ أنيس منصور الضخم عن الأستاذ العقاد أو بمعنى أصح كتاب أنيس منصور عن «أنيس منصور فى صالون العقاد» الفصل الذى يروى فيه قصة مرض الكاتب الكبير وبداية النهاية لرحلة العملاق فى الحياة .. وقد اختار له عنوانًا معبرًا هو «الأستاذ مريضًا ..» .

وبالرغم من مأساوية هذا الفصل الذى يروى قصة النهاية ومقاومة العقاد للمرض بصلابة وكبرياء إلا أنه لا يخلو من لمحات مثيرة للتأمل عن شخصية العقاد المتمردة الرافضة للقيود حتى قيود العلاج !. كان العقاد مريضًا مزمنًا بالمصران الغليظ ـ وكعادته كلما واجه مشكلة تعترض طريقه لجأ إلى سلاحه الذى لا يملك غيره لمواجهة الحياة وهو المعرفة ! فقرأ كثيرًا فى الطب وقرأ كثيرًا عن المصران الغليظ وعن الأدوية والعقاقير.

وكعادته رفض عقله الجبار أن يصدق أن هناك من يمكن أن «يعرف» أكثر مما يعرف هو عن هذا المرض وعلاجه من الأطباء أو غيرهم فكان تلاميذه إذا رأوه مجهدًا يعانى من آلام المصران ويضع يده

فى جانبه باستمرار على موضع الألم ليسكنه ، يحتالون لدعوة بعض الأطباء لزيارته وفحصه «متنكرين» فى شخصيات أخرى .. كتلاميذ للعقاد أو كمحبين للثقافة ، فإذا سأله أحدهم بطريقة عابرة عما يعانى منه انطلق العقاد يشرح له اسباب المرض وعوارضه والنظريات الطبية المختلفة فى علاجه . ثم أسماء الأدوية المختلفة وتركيبها وعناصرها والآراء المختلفة حول فعاليتها .. ثم يرفض فى النهاية أية نصيحة طبية مؤكدًا للجميع أنه يعرف ما يشكو منه ويعالجه بطريقته الخاصة منذ عشرات السنين !.

وحين مرض العقاد مرضه الأخير.. أصر على أن ما يشكو منه هو المصران الغليظ فى حين تمسك الأطباء الذين أجبره الأصدقاء على «الاستسلام» لفحصهم على أنه يعانى من شىء ما فى القلب وأنه سبب تدهور صحته فى المرحلة الأخيرة وليس المصران .

أما هو العملاق الذى اعتاد أن يؤمن بما يعتنقه من آراء وأن يدافع عنها حتى الرمق الأخير فلقد كان يجادل الأطباء «ويناظرهم» فى نظريات الطب والعلاج ، فيخرج الطبيب من زيارته متعجبًا كيف درس العقاد الطب وفى أى الكليات تعلمه ؟

لقد كان العقاد العظيم مريضًا عظيمًا أيضًا .. لكنه لم يكن مريضًا مثاليًا ! فلقد كان يرفض نصائح الأطباء .. ولا يستجيب لها إلا تحت ضغط مريديه وتلاميذه واستجابة لتوسلاتهم الحارة واستعطافهم له ! وكان العقاد معتدلاً فى نظام حياته إلا فى القراءة والكتابة أما طعامه فكان بسيطًا ومتقشفًا ولا يعدو الطعام المسلوق طوال سنواته الأخيرة

ومنذ بدأ يشكو من المصران الغليظ ..

وكان يمشى كل يوم لأكثر من ساعة فى شوارع مصر الجديدة ليحافظ على حيويته حين كانت شوارعها تسمح للإنسان بالمشى .

لكنه كان يجهد عقله وذهنه وقلبه بالعمل المضنى فى القراءة والكتابة والدرس .. وفى الكفاح دفاعًا عن آرائه ومواقفه .

ولأن الأشجار تموت واقفة شامخة دائمًا .. فلقد مات العقاد شامخًا كما عاش حياته كلها شامخًا فى وجه الأعاصير ! .

وحين جاءته النهاية كان جالسًا على مقعد بجوار سريره .. وكان وهو جالس يبدو عملاقًا كشخص واقف على قدميه ، وكان يضع كعادته يده فى جانبه الأيسر كما اعتاد أن يضعها على موضع ألم المصران .. كأنه للحظة الأخيرة يريد أن يقول للأطباء أن تشخيصكم خاطئ . وأننى أعرف أكثر مما تعرفون فأنا أعانى من المصران وليس من القلب .. ثم مال فجأة وببطء شديد ووقار إلى جانبه الأيسر قليلاً ومالت رأسه معه .. ومات ! وانطوت صفحة كاتب عظيم كرس حياته كلها للدفاع عن سلطان العقل فى وجه الظلام والخرافات والجهل .

وكثيرًا ما أتذكر هذه الصورة المؤثرة التى رسمها أنيس منصور للحظات الأخيرة فى حياة العقاد ، وأتساءل هل نحتاج جميعًا إلى أن نكون كالعقاد فى «دائرة معارفه» عن الطب والأمراض والعلاج ! لنحيا حياة صحية سليمة ؟ وأجدنى دائمًا أجيب لا ، لسنا نحتاج إلى ذلك .. ولا هو مطلوب منا ذلك فلسنا نحتاج إلى أن « نجادل » الأطباء فى علمهم وتخصصاتهم لكننا نحتاج فقط إلى قدر معقول من الثقافة

الطبية تمكننا من أن نتنبه إلى بدايات أى تغير غير طبيعى فى حالتنا الصحية ـ لنسارع إلى علم الأطباء ليؤدى دوره ومهمته ! وهذا هو الفارق الأساسى بين المعرفة والجهل فى هذا المجال فالجهلاء قد لا يتنبهون إلى عوارض التغيرات الواضحة فى صحتهم إلا بعد أن يستفحل المرض ويصعب علاجه وأصحاب العقول هم من يسارعون إلى علاج الأسباب قبل أن تستفحل الظواهر . ولسنا مطالبين بأكثر من ذلك .. أما « مناظرة » الأطباء ومجادلتهم « وامتحان » معارفهم وتحدى تشخيصاتهم ونصائحهم .. فقد تكون من عادات العباقرة وحدهم ..

وربما كانت أيضًا من حقهم لأن للعبقرية حقوقًا ليست لغيرها .. وهى لا تخلو عادة من بعض لمحات الشطط أما «أمثالنا» من الأشخاص العاديين الذين يمثلون تراب الإنسانية على حد تعبير الفيلسوف الألمانى نيتشه فليس من حقهم هذا الشطط ولا هذا الجنون .. وربما لهذا السبب يعيشون أطول !.

أراك .. لا تفعل !

جاء شهر رمضان .. رفعت كتب الأدب والتاريخ والفلسفة من فوق مكتبي الصغير فى مسكنى وأعدتها إلى رفوف مكتبتى .. وأنزلت من الرفوف بعض كتب السيرة النبوية وتراجم الصحابة والتفسير وأعلام الفكر الدينى ورصصتها على جوانب مكتبي . هذا هو زادى الفكرى ومتعتى طوال شهر الصيام . أما مشروعى الأكبر فهو مستمر طوال العام بلا بداية ولا نهاية . فمشروعى الدائم هو محاولة فهم القرآن مستعينًا بكتب التفسير الكبرى ـ وحلمى الذى يراودنى كلما أهل شهر رمضان هو أن أنتهى من هذه المحاولة خلال أيامه ثم أجد من الوقت ما يسمح لى بأن أكتب كتابًا عن الشخصية التى تفتننى من شخصيات التاريخ الإسلامى .. وهى شخصية عمر بن الخطاب . تمنعنى الهيبة من الاقتراب من سيرة الرسول الكريم .. وتنحصر أحلامى فى شخصية عمر الذى أحببته .. وفتنت بعدله وشدته فى الحق ورحمته التى تتخفى وراء قوته ومهابته .

يزداد عجبي واعجابى بمن حفظوا القرآن فى طفولتهم ولو بضرب الفلقة فى الكتاب .. وأسأل نفسى مرارًا هل كانت نعمة أم نقمة أنى لم

أدرك عصر الكتاتيب فلم أحفظ القرآن فى طفولتى والذهن بكر والذاكرة شابة لم توهنها الأيام ؟

ويزداد إحساسى بعجزى وقصورى كلما وجدتنى غير قادر على قراءة أكثر من بضع عشرات من آياته فى الجلسة الواحدة أتصبب بعدها عرقًا .. وأشعر بالحاجة لأن أريح رأسى من التفكير العميق وأعجب لنفسى كيف أقرأ أحيانًا كتابًا من ٢٠٠ أو ٣٠٠ صفحة فى ليلة بلا توقف ، ثم أعجز عن الاستمرار فى قراءات للقرآن لأكثر من بضع صفحات متوالية ؟.. أفسر عجزى بأن تهيبى لقراءته وحاجتى المستمرة لأن أكون فى قمة تنبهى خلالها .. ورجوعى لكتب التفسير بين كل آية وأخرى وقراءتى لمقدمات السور .. هى السر فى بطئى الشديد .. لكن هذا التفسير وحده لا يقنعنى .

أقول لنفسى أحيانًا .. لقد نزل القرآن منجمًا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى بضع وعشرين سنة على حسب الحوادث والمناسبات ونزل أغلبه فى مكة وضواحيها وسمى «المدنى» .. ونزل آية وآيتين وأحيانًا أكثر من ذلك .

فهل يحتاج الإنسان إلى بضع وعشرين سنة لكى يستوعبه ويستجلى كل معانيه ؟

من يدرى ؟

ينعقد لسانى من الانبهار بمن يستطيعون تلاوته غيبًا وبغير خطأ واحد فى التشكيل أو الوقف ، وأتوقف كثيرًا أمام من يقول «لقد شرح الله صدرى للقرآن فحفظته فى طفولتى» أو من يقول «حملت القرآن فى

صدرى منذ صباى ».. وأسأل نفسى مرتعبًا.. هل معنى بطئى الشديد فى دراسته أن الله لم يشرح صدرى له ! أخاف الإجابة وأتعلق بالأمل .. وكعادتى حين أقف حائرًا أمام أى سؤال ألجأ إلى كتبى وقواميسى باحثًا عن الأمان . أرجع إلى كتب التفسير لأعرف معنى «يشرح صدره» فأجد «يشرح صدره أى يفسح ويقذف فيه نورًا ينفسح به» . أتلمس صدرى بيدى وأتساءل متى يلقى الله فيه نورًا فينفسح ويتسع لحمل القرآن وفهمه ومن يدرى ربما حفظه لو أراد الله ذلك ؟

لقد كان لى جدٌّ يعيد قراءة القرآن غيبًا ومن ذاكرته خلال شهر رمضان ثلاث مرات فى قراءة متصلة من صلاة العشاء حتى الفجر .. يضع المصحف مفتوحًا أمامه ولا يكاد ينظر فيه وإنما يستغرق فى التلاوة من الذاكرة ، ثم يبكى فى أخريات رمضان لأن الشهر الكريم قد آذن بالرحيل ولم يختم القرآن فيه سوى ثلاث مرات !.

فأين نحن من هؤلاء الرجال ؟

أسأل نفسى أحيانًا هل من واجب كل مسلم أن يحفظ القرآن كله خاصة إذا لم يكن قد درسه دراسة منهجية منذ البداية .. وأفكر فى السؤال طويلاً ثم أقول : إن استطاع فليفعل .. وإن لم يستطع فليكن دائم النظر فيه .. وحسبه أن يعمل به .. وأن يلتزم بقيمه السامية .. وأن يفهمه حق فهمه .

لقد سئلت السيدة عائشة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت فى عبارة بليغة وموجزة : كان خلقه القرآن . فمن لنا ببشر

خلقهم القرآن سواء أحفظوه أم قصرت أمانيهم عن حفظه أحاول أن أتذكر من القائل «من كان رفيقه القرآن فلا خوف عليه» فلا أستطيع ، ما أكثر ما تسرب من الذاكرة .. وما أقل ما صمد فيها للمحن !.

أذكر أنى أحسست بنفس التهيب الذى يتولانى حين أقدم على قراءة القرآن حين «جاهدت» من قبل لأقرأ التوراة والإنجيل فى بداية رحلتى الشاقة لقراءة الكتب السماوية قراءة منهجية متأنية . ورحم الله صديقى المستشار ماهر برسوم الذى طلبت منه نسخة من الكتاب المقدس فأهدانيها .. واستغرقت فى قراءتها شهورًا طويلة .. يا إلهى .. ليست الأديان السماوية فى مجموعها سوى قيم أخلاقية سامية ومثل عليا نبيلة لو التزم الإنسان بها لما عرفت الدنيا ظلمًا ولا شقاء ولا معاناة . بل حتى الأديان غير السماوية أيضًا كالبوذية والهندوكية وغيرهما ليست سوى قيم أخلاقية فما وجدت خلال محاولتى لدراستها دينًا يسمح بالقتل أو السرقة أو شهادة الزور أو بظلم الإنسان لأخيه الإنسان أو بإيذاء الآخرين أو قهرهم .. فمن أين جئنا نحن بكل هذه المظالم ؟

تهدأ نفسى حين أستمع إلى القرآن مجوَّدًا بصوت مشاهير القراء ويتجدد عجبى لهم .. كيف حفظوه .. وكيف جوَّدوا تلاوته .. وكيف حفظوا المد .. والغن .. والوقف الاجبارى .. والوقف الاختيارى فى تلاوته .. وكيف استوعبوا باقى فنون قراءته التى تمثل علمًا عميق الأغوار هو علم القراءات ؟

أحس بالرغبة فى البكاء إذا سمعت صوت الشيخ محمد رفعت

الخاشع الذى يجدد دائمًا أحزانى وأحس بنشوة غريبة إذا سمعت صوت سلطان القارئين الشيخ مصطفى إسماعيل رحمه الله .. وأتذكر كيف سمعته لأول مرة منذ سنوات طويلة فى مدينتى الصغيرة دسوق حين كان يجىء إليها مرة كل سنة ليحيى ليلة وفاءً لأصدقائه القدامى فيها.. لقد كان أول أجر تقاضاه عن هذه الليلة بضعة جنيهات ثم علا نجمه وتضاعف أجره ، عدة أضعاف لكنه ظل وفيًا لأصدقائه فى دسوق وحريصًا على احياء هذه الليلة مرة كل سنة بنفس الأجر القديم .. ويحاول فى كل مرة الاعتذار عن قبوله ثم يستجيب لالحاح أصدقائه بحجة أنه ليس أجرًا وإنما «بركة» فيتقاضى المبلغ المتواضع شاكرًا .. وربما أعطاه لسائقه وهو فى طريق العودة للقاهرة . إن الفنان العظيم .. غالبًا إنسان عظيم أيضًا .

أما صوت المرحوم عبد الباسط عبد الصمد ـ فلا أعرف لماذا يذكرنى دائمًا بصوت الكمان من بين آلات الأوركسترا .. وبرغم صوته الحزين فلقد كان رحمه الله من ظرفاء عصره قابلته مرة فى إحدى الدول العربية التى كان مدعوًا لاحياء ليالى رمضان فيها فشكا لى من جمود بعض المترمتين فيها الذين يأخذون عليه أنه يبدأ تلاوته كما يفعل الجميع «بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم» بحجة أنها لم ترد فى الأثر.. وينهيها بقوله «صدق الله العظيم» وبحجة إنها لم ترد فى الأثر أيضًا ، ثم قال لى متعجبًا : ربما أستطع أن أستغنى عن الاستعاذة بالله من الشيطان فى بداية التلاوة لكن كيف أنهى تلاوتى إذا استغنيت عن قول «صدق الله العظيم» .. هل أعزف السلام الجمهورى مثلاً ؟

يطربني من أصوات القراء المعاصرين صوت الدكتور أحمد نعينع وصوت الشيخ راغب غلوش وكلاهما من مدرسة قارئي العظيم الشيخ مصطفى إسماعيل فى حلاوة الصوت وقوة الأداء .. وتعجبنى أصوات كثيرة لقراء اخرين أنبهر بهم جميعًا .. ويظل حفظهم للقرآن وقدرتهم على تلاوته غيبًا من الخوارق البشرية فى نظرى !.

أعود إلى مشروعى الدائم .. وأقرر أن أكون أكثر تنظيمًا لوقتى خلال رمضان هذا العام لأحاول قدر جهدى أن أنهى قراءتى المتأنية للقرآن فيه ، سأحترس أكثر من الاستغراق فى كتب التفاسير لأواصل القراءة بمعدل أسرع .. سأتنبه أكثر لعدم الاستغراق فى قراءة كتاب الراحل الأستاذ سيد قطب الرائع «فى ظلال القرآن» بين كل سورة وأخرى كما أفعل دائمًا حتى لا يسرقنى العمر قبل أن أتم مشروعى .. ويكفينى أنى قد قرأته أكثر من مرة .

يلح علىّ السؤال دائمًا كيف تبددت سنوات العمر بغير أن أستطيع تحقيق هذا المشروع العظيم .. وأتساءل مشفقًا : هل يتسع ما بقى منه لاتمامه وإن لم يتسع أيكون الإنسان جديرًا بعقاب ربه ؟

يضيق صدرى كلما وصلت إلى هذا التساؤل .. ثم يخف حزنى قليلاً كلما تذكرت أن رحمة الله قد وسعت كل شىء .

وأردد لنفسى دائمًا كلما ضاقت بعجزها وقصورها دعاء زاهد الكوفة عمر بن ذر على ، الذى كان الإمام أبو حنيفة النعمان صاحب منهج العقل فى الشريعة يصلى وراءه ويدعو بدعائه .

فقد كان زاهد الكوفة يناجى ربه عقب كل صلاة قائلاً :

«أتعذبنا يارب .. وفى جوفنا التوحيد؟ أراك لا تفعل» .

نعم .. أراك لا تفعل .. أو هذا على الأقل هو الأمل والرجاء والدعاء .

فاللهم لا تفعل !.

صخور الآخرين !

هل أدلك على مدرسة مجانية تتعلم فيها تعليمًا راقيًا كل يوم بلا مصروفات ولا دروس خصوصية ؟

راقب الآخرين .. وأعرف بم يتميزون عنك .. وماذا يحب الناس فيهم ولماذا يحبونهم .. ثم حاول أن تكتسب صفاتهم الحميدة ومميزاتهم .. وراقب الآخرين وحدد عيوبهم والصفات التى تكرهها فيهم .. والأشياء التى تبغّض الناس فيهم وحاول أن تتجنبها .. تضف إلى مؤهلاتك كل يوم مزايا جديدة وتخصم من عيوبك كل يوم المزيد وتفز فى النهاية بحب الآخرين واحترامهم . لقد كان الفيلسوف الأمريكى إيمرسون ـ ١٨٠٣ ـ ١٨٨٢ ـ يقول : كل شخص ألقاه يفوقنى فى ناحية واحدة على الأقل أستطيع أن آخذ عنه فيها هذه الناحية وأن أتعلم !.

وهذا صحيح تمامًا ولو طبقت هذه القاعدة لوجدت نفسك تلقائيًا تحترم الجميع وتستفيد من الجميع مهما صغر شأنهم .

فالناس من حولنا لهم دائمًا مزاياهم وعيوبهم ولم يعرف التاريخ أبدًا بشرًا كالملائكة إلا الرسل والذين تأدبوا بآدابهم وفى كل زمان

ومكان هناك أخيار وأشرار .. وناس لهم ضعفهم ولهم قوتهم ولم يأت زمن أبدًا كان فيه «الناس ناسًا .. والزمان زمانًا» كما قال الشاعر العربى متحسرًا ، لكن الشكوى من الزمان ومن تغير الناس وضعف أخلاقهم قديمة قدم الزمان .. ففى الجاهلية قال الشاعر الجاهلى لبيد الذى طال به العمر حتى ملَّه «ذهب الذين يعاش فى أكنافهم !» ويوم فتح مكة قال أحدهم «اسكتى يا فلانة فقد ذهبت الأمانة» ! ويوم غزوة بدر قال آخر «بطن الأرض اليوم خير من ظهرها !» أى أن من تحمله فى بطنها من الراحلين أفضل ممن بقوا فوق ظهرها !.

وعثر العلماء على نصوص أدبية من العصر الرومانى تنعى على الناس تدهور أخلاقهم وفساد ذممهم .. وتدين انتشار ظاهرة الانتحار ضيقًا بالحياة !.

إذن فالشكوى قديمة .. ونحن حين ننعى على الناس أخلاقهم التى تدهورت .. إنما نولول بغير أن نشعر على أيامنا التى ولَّت وشبابنا الذى ضاع . أما الناس ففيهم دائمًا مزاياهم وفيهم دائمًا نقصهم وعيوبهم ولسنا بدعًا فى ذلك !.

ومعظم مشاكلنا فى التعامل مع الآخرين تأتى من خطأ فى تفكيرنا نحن لا فى تفكيرهم هم . فنحن نفكر فى الناس دائمًا كما لو كانوا مثلنا تمامًا متطابقين معنا فى كل الصفات النفسية والأخلاقية .. وبالتالى فإننا ننتظر منهم أن يتصرفوا معنا كما لو كانوا نحن وكنا هم .. فإذا جاء ما ننتظره منهم أقل مما نتوقعه صدمنا فيهم وتغيرت مشاعرنا تجاههم وخسرنا صفاء نفوسنا .. وربما خسرنا صداقتهم ، ونكرر هذا الخطأ

دائمًا مع أن كل إنسان هو وحدة قائمة بذاتها ، لهذا فلابد أن تختلف ردود أفعاله إلى حد ما عن ردود أفعال الآخرين .. وما لم نعرف ذلك ونوطن النفس على قبوله .. عانينا معهم .. واتهمناهم بالجحود وخسرنا سلامنا النفسى .. وازداد إحساسنا بالغربة ونحن وسط زحام الآخرين .

إن عالمى النفس ماك بين ورونالد جونسون يؤكدان أنه لا يوجد فى الدنيا كلها شخصان متماثلان تمامًا فى صفاتهما النفسية والجسمية .. وإن كل إنسان يعتبر عديم النظير كبصمة اصبعه التى لا تتكرر فإذا عرفنا ذلك وفهمناه استرحنا وأرحنا وعشنا حياتنا بمعاناة أقل. وأفضل سلاح تستعين به على أن تعايش الآخرين فى سلام هو أن تؤمن بأنك إنسان مختلف لكنك لست إنسانًا متميزًا على الآخرين لأن اختلافك عن الآخرين يقنعك باختلافهم عنك ويعنيك على فهم تصرفاتهم المختلفة عن تصرفاتك .. ويساعدك على تقبلها وتلمس الأعذار لهم فيها .. أما إحساسك بالامتياز عنهم فلا يخلق لك سوى الأعداء ! .

فلقد كان أحد المفكرين الأمريكيين يقول : إذا أردت أن تخلق لك الأعداء فتميز على أصدقائك .. أما إذا شئت أن تكسب الأصدقاء فدع أصدقاءك يتميزون عليك .

وخير ما تفعله فى هذا الشأن أيضًا هو أن تؤمن مع أبى حيان التوحيدى بأن الحقيقة أكبر من أن يدركها عقل واحد .. وإنه لو وضع فيل أمام عشرة أشخاص مكفوفين وتحسس كل منهم الجزء الذى يواجهه لقال أحدهم هذا خرطوم .. وقال الثانى هذا عاج .. وقال الثالث هذا حائط ، وكل منهم صادق لأنه عبر عن الحقيقة كما أحسها

هو بمدركاته وبعقله المحدود ..

فإذا تفكرت فى هذا المثال الذى أورده التوحيدى آمنت بأن كل رأى قد يحمل جانبًا من الحقيقة وإن بدأ مخالفًا تمامًا لما نعتقد أنه الحق والصواب .. ولتعاملت مع آراء الآخرين بما تستحقه من احترام .. وبما يستحقونه هم من إنصاف وتقدير ولتجنبت الكثير والكثير من الأخطاء والعثرات . فالحق أن الحياة ملاحة صعبة فى نهر تعترضه الصخور والجنادل وكل إنسان يحتاج إلى أن يكون ملاحًا ماهرًا ليقود سفينته الصغيرة فيه بحكمة بغير أن تتحطم على صخور الآخرين .

والربان العظيم العادل عمر بن الخطاب كان يقول : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك منه ما يغلبك على ظنك . أى توسم فيه الخير إلى أن يصدمك بشرِّه وكان يقول عليك بإخوان الصدق فإنهم زينة فى الرخاء .. وعدة فى البلاء وكان يقول أيضًا لا تطلبن حاجتك إلى من لا يحب نجاحها لك أما أنا فإنى أتذكر دائمًا عبارة المفكر الفرنسى جان جاك روسو التى قال فيها : كان عندى ست نظريات لتربية الأبناء وليس عندى ولد واحد ، والآن صار عندى ستة أولاد وليس عندى نظرية واحدة لتربيتهم !.

فإذا سألتنى لماذا أتذكرها أجبتك بأنى أنا أيضًا عندى ست نظريات للحياة بسلام مع الآخرين لكن كل أملى هو أن تنجح واحدة منها قبل أن ينتهى العمر !.

نفثة ... فى الهواء !

كتب إلىّ يقول :

أنا شاب عمرى ٢٢ سنة طالب بإحدى الكليات النظرية .. وأجيد رياضة الكونج فو بعدة أساليب منها أسلوب «شارلن» و «سن» وهما من أقوى أساليب هذه اللعبة ويحتاج الإلمام بهما الى تدريب شاق وإرادة قوية كما أجيد أيضًا الضرب بالعصا بعدة أساليب .. هذا أنا .. أما مشكلتى فسوف تتعجب لها .. فمشكلتى هى أنى لا أستطيع الدفاع عن نفسى أمام عدوانية الآخرين التى انتشرت الآن وأصبحت ظاهرة من ظواهر حياتنا الاجتماعية . فأنا إنسان طيب وهادئ بطبعى ومبتسم دائمًا ولا أحب التشاجر لكن كثيرين من الناس يتصورون أن هذه الطيبة ضعف .. لأننا أصبحنا فى عالم لا يعترف إلا بالقوة وكأى إنسان قد تدفعنى الظروف للاحتكاك بالآخرين .. وقد يتطور هذا الاحتكاك إلى تشاجر رغم أنى أحرص ـ والله العظيم ـ على ألا تصل الأمور إلى هذا الحد .. فإذا حاولت أن أنهى موضوع الشجار باللين والسماحة إذا بالشخص الآخر أو الأشخاص الآخرين يظنون ذلك ضعفًا منى ، وينهالون علىّ بالكلمات وأنا واقف عاجز كالمشلول لا أرد عليهم

ضرباتهم .. ويتعجبون من قدرتى على تحمل هذا الضرب .. ولا عجب فى ذلك لأنه لا يؤثر فى فعلاً .. وأتحمله لأنى أخاف على الشخص الآخر أكثر مما أخاف على نفسى لأنى أعرف قوتى .. لكنى حزين يا سيدى لما وصلنا إليه فى العلاقات الإنسانية .. فهل أصبح الإنسان الطيب الهادئ الذى يتعامل مع الناس برفق ضعيفًا .. وهل أصبح الناس لا يخشون إلا القوة . لقد توقفت عن التدريب على الكونج فو منذ سنوات .. لأن الناس لا يتركون أحدًا فى حاله .. فقد كنت أجرى فى الشوارع كجزء أساسى من التمرين .. فلا أسلم من التعليقات الهازئة وطول اللسان فهذا يقول : ناس فاضية .. وذاك يقول : شوف طول إيه وبيجرى فى الشارع .. وثالث يقول : روح ذاكر لك كلمتين أحسن .. وأسأل نفسى : هل أسأت إلى أحد .. هل ضايقت أحداً .. لماذا إذن لا يدعوننى فى حالى وكل هذا إذا جريت فقط .. فما بالك إذا قمت بالحركات البهلوانية الأساسية فى التدريب .. إنها ليست مشكلتى وحدى لكنها مشكلة كل الرياضيين الذين لا يجدون مكاناً للتدريب سوى الحدائق والشوارع .. ومشكلة كل الناس الذين يتألمون من عدوانية الكثيرين الذين يظنون طيبة الآخرين ضعفاً وأنا لست ضعيفاً ياسيدى لكنى إنسان هادئ .. وقد أقسمت قسماً وعاهدت نفسى ألا استخدم قوتى ضد أحد .. والتزمت بهذا العهد .. ولم أخرقه سوى مرة واحدة والله شهيد على ما أقول .. وقد تألمت لاضطرارى لخرقه رغم نبل هدفى فيه .. فقد كنت راكباً القطار ذات يوم ورأيت مجموعة من الشبان تعاكس فتاة بفجاجة وتضايقها حتى استغاثت منهم .. وهالنى

أن الناس وقفوا عاجزين لايحركون ساكناً فى عربة القطار لأن مظهر هؤلاء الشبان كان يوحى بأنهم بلطجية .. فتقدمت منهم وحاولت نصحهم باللين والأدب ففوجئت بهم ينهالون على بالشتائم المقذعة .. والتعليقات الساخرة .. فلم أتمالك نفسى و « طحت » فيهم ضرباً فسقط أحدهم مغشياً عليه .. وتراجع الباقون وهم يسحبون زميلهم كما يفعل الجنود بعد المعارك الحربية رغم أنهم كانوا أسوداً منذ لحظات .. ووجدت نظرات الاعجاب تحيط بى من كل جانب .. فلم أتحملها لأنى لا أحبها فى الأذى ونزلت من القطار قبل محطتى ومشيت أفكر .. ماذا جرى لنا .. لماذا لانتعامل بالمعروف .. ولماذا أصبح للقوة كل هذا الاحترام .. أننى أريد منك أن توجه كلمة للناس ترجوهم فيها أن يدعوا كل إنسان فى حاله .. وألا يعتبروا الطيبة ضعفاً وشكراً لك .» .

● انتهيت من قراءة رسالته .. ووجدتنى أفكر فيها طويلا ثم أمسكت بالقلم لأكتب له هذا الرد فى بريد الجمعة بالأهرام :

رسالتك تنكأ جرحاً جديداً من أوجاع حياتنا الاجتماعية هى سمة العدوانية والشراسة التى تتسم بها معاملات الكثيرين الآن مع الآخرين .. إنها فى رأيى إحدى ظواهر مجتمع الزحام الذى نعانى منه الآن .

ففى الزحام تتراجع قيم التعاطف والكياسة والعدل .. وتتقدم قيم الأنانية والفردية والعدوانية .. ذلك أن نفسية الحشد تتم دائماً بسرعة التهيج والعدوانية على عكس نفسية الأشخاص حين يكونون فرادى وتستطيع أن تلمس ذلك فى أمثلة بسيطة فى الحياة فحين تكون أمام

باب ضيق للخروج مع شخص آخر أو شخصين .. فإنك غالباً سوف تتراجع وتدعو غيرك ليتقدمك لطفاً منك وأدباً أما إذا كنتم ألفاً وعليكم أن تخرجوا من هذا الباب الضيق فى نفس الوقت فإنك غالباً سوف تتنازل عن هذا اللطف وتنشغل بمحاولة الخروج ولو حاولت سبق غيرك إليه .. وهذا بالضبط هو ما نعانيه الآن من أخلاقيات مجتمع الزحام والحل دائما هو أن يستهدى كل إنسان بقيم دينه فى معاملاته مع الآخرين وأن تسود روح العدل عند الأشخاص .. فلا يظلمون ولا يُظلمون .. فروح العدل هذه هى التى تسهل الحياة وتذلل صعوباتها وليست القوانين .. لأنها قانون شخصى ينبع من داخل الإنسان ولايحتاج إلى رقيب عليه لتنفيذه وقانون إلهى يفرض على المرء أن يحب للآخرين مايحب لنفسه وأن يسلم للآخرين بحقوقهم كما يتمسك هو بحقوقه .. وألا يحاول أن يغتصب حق غيره أو يمتهن كرامته ابتداء من حقوقه الأساسية .. إلى حقوقه البسيطة فى ألا يضايقه أحد بتعليق ساخر أو كلمة نابية وهو يمضى فى الطريق .

أما تساؤلك عن الطيبة والضعف فلقد ذكرنى بالقصة الهندية القديمة عن الثعبان الذى استيقظ ضميره وأراد أن يكف عن إيذاء الآخرين .. فسعى إلى راهب هندى يستفتيه فى أمره فنصحه بأن ينتحى من الأرض مكاناً معزولاً وأن يكتفى بالنزر اليسير من القوت تكفيراً عن جرائمه ففعل لكنه لم يسترح لأن عصبة من الصبيان جاءوا إليه فقذفوه بالأحجار فلم يرد اعتداءهم .. فشجعهم ذلك على أن يذهبوا إليه كل يوم ، ويقذفوه بالأحجار حتى كادوا يقتلونه .. فعاد إلى

الراهب يستفتيه مرة أخرى فقال له الراهب : انفث فى الهواء نفثة كل أسبوع ليعلم هؤلاء الصبية أنك تستطيع رد العدوان إذا أردت .. فعمل بالنصيحة وابتعد عنه الصبية واستراح .

وخلاصة القول : إن الطيبة ليست ضعفاً .. وإنما هى ترفع عن الأذى .. خوفاً من عقاب الله .. وطمعاً فى رحمته ، لكنى أخشى أن أقول إن ظروف حياتنا وتعقد العلاقات الاجتماعية فيها الآن قد أصبحت تتطلب التفرقة بين طيبة القوة وطيبة الضعف مع أن كليتهما مرغوبة ومطلوبة فى كل الأحوال ، وللدكتور زكى نجيب محمود تصوير طريف فى هذا المجال يشبه فيه الناس بثلاثة أمثلة .. المثال الأول : بالأسد الذى لايبدأ العدوان لكنه يرد الاعتداء عليه إذا وقع .

والثانى : بالذئب الذى لايبدأ العدوان ويرد الاعتداء عليه . والثالث : بالحمل الذى لايبدأ العدوان .. ولايقدر على رد الاعتداء عليه فيسهل أكله .

وكلما انتشر مثال الذئب فى أى مجتمع تعقدت الحياة فيه وأصبحت رحلة غير مأمونة العواقب ، وكلما انتشر مثال الأسد فيه اعتدلت الموازين واستقامت الحياة . والطيبة فى رأيى لاتتعارض مع حق الإنسان فى أن يرد الاعتداء عليه بالطرق المشروعة ولولا خشيتى عليك من أن توردك قوتك العضلية موارد التهلكة فتورط نفسك فى متاعب قانونية ويضيع مستقبلك .. لنصحتك بأن تكون طيبتك من نوع طيبة الأسد الذى لايبدأ بالعدوان لكنه يرد الاعتداء عليه بالردع لهذا فلن أنصحك إلا بأن تمضى كما أنت ياصديقى مطمئناً إلى أن طيبتك ليست

ضعفاً .. ولا بأس بأن تنفث فى الهواء نفثة واحدة كلما اشتدت الحاجة إلى ذلك ليعرف الآخرون أنك قادر على رد الاعتداء إذا أردت .» .

ترى هل نفَّست عما فى صدره بهذه الكلمات . أم ترانى نفست بها عما فى صدرى أنا حين أرانى مضطرًا فى بعض الأحيان لأن أفسر للبعض حلمى عليه .. بأنه ليس ضعفًا ولا تخاذلاً ولا تفريطًا فى الحقوق وإنما هو كما قال الخليفة المعتصم ذات يوم : لكى تعرف الأمَّة أن صدرنا لا يضيق عن الحلم .. رغم مَضَاء العزم !!

•• قصة قصيرة من اوراق طفل سابق ••

معنى الأشياء

أصحو من نومى قلقا بغير أن توقظنى يد أمى كالعادة .. اتنبه باحساس غامض إلى أن شيئا ما غير مألوف يجرى فى البيت هذا الصباح .. انزلق من سريرى فأكتشف غياب شقيقى الأكبر الذى يقاسمنى غرفتى .. اتعجب متى استيقظ وهو من لايغادر الفراش إلا بزوبعة .. أغادر الغرفة مستطلعا فأسمع وحوحة ترافقها همهمة حانية .. اتقدم إلى الصالة الصغيرة فأجد شقيقى يصعد السلم من الدور الأرضى ببيتنا القديم بصعوبة وأبى يسنده هامسا له بأن يخفض صوته حتى لايزعج النائمين أتعجب للمشهد ولا أفهم سره .. وأرقبهما وهما يخطوان ببطء حتى يدخلا حجرة نوم أبى. بعد لحظات يخرج منها أبى وحده فيرانى لأول مره .. ينزعج قليلاً ثم يملك نفسه ويحيينى برقة .. أرد تحيته بقلب تشرَّب حبه منذ نبض أولى نبضاته ، يشير إلىّ أن أقترب منه .. فأتجه إليه مبتهجًا يدعونى للهبوط معه إلى الدور الأرضى حيث غرفة الجلوس فى بيتنا أتدحرج على السلم بجواره سعيدا مؤملا أن يصحبنى معه إلى عمله حيث استمتع بإفطار من السوق وكوب شاى ساخن . أكتشف فى عجلتى أننى ارتدى جلباب النوم والشبشب

فأتوقف مستأذنا فى العودة لإرتداء ملابس الخروج والحذاء فيشير لى بيده ألا أهمية لذلك . اسعد بهذا التغير المفاجئ فى تشدده ازاء مسألة لبس ملابس لائقة والحذاء عند الخروج وأواصل هبوط الدرج . نصل معاً إلى الدور الأرضى فلا يتجه إلى باب الخروج وإنما يجذبنى للناحية الأخرى فأطيع ملبيا . أتوقع أن يتجه إلى دورة المياه الصغيرة فى الدور الأرضى كعادته قبل مغادرة البيت لكنه يعبرها بلا توقف ويتجه إلى غرفة الجلوس . أدخل الغرفة معه فأجد شخصين غريبين يرحبان بى بنظرة باسمة . يستقر أبى فى مقعد وثير ، فيطلب منِّى أحد الرجلين طلبا عجيبا هو أن أجلس على ركبتيه ! أنظر لأبى بإستغراب فأجده غير مبال بالأمر . أشكر الرجل الغريب وأبلغه أنى مستريح هكذا فى مقعدى لكنه يتمسك بطلبه باصرار غريب . أرفض أن أتحرك فيتعاون الغريبان على حملى بالقوة ويجلس أحدهما ثم يجلسنى على ركبتيه وينشغل الآخر بأشياء غريبة .. استغيث بأبى .. أنظر إليه مرتاعا فلا أجد منه سوى نظرة جامدة أهمُّ بالفرار فأحسُّ بذراعى الرجل الجالس تطوقانى بقوة وتتصاعد المأساة فأرى الآخر يمد يده وألمح فى رعبى شيئا أشبه بالسكين فى يده فأفقد معنى الأشياء وأصرخ من أعماقى متوقعا فى كل لحظة أن يهب أبى من مقعده ثائرا فيطيح بالرجلين بضربة واحدة لكنى أحس مرارة الخذلان قاسية فى جموده وينتهى كل شىء فى ثوان ويرفع الرجل الواقف أمام عينى المرتاعتين قطعة من الشاش يلوح بها باسما . يشغلنى عن الألم احساسى الشديد بخيانة أبى واستدراجه لى بثقتى الكبيرة فيه إلى هذا الفخّ .. أرفع إليه نظرات العتاب فيمتزج الاشفاق

بالشعور بالذنب فى ابتسامته الحيية . يفك الرجل الجالس قيوده عنى فأنزلق إلى الأرض محاولا الهرب لأشكو لأمى فأحس ألما شديدا عند الحركة .. أتوقف عاجزا فيجىء أبى ليسندنى ويدفعنى برفق ناصحا لى بأن أباعد بين ساقى .. أفهم فى هذه اللحظة فقط سر وحوحة شقيقى الأكبر ومشيته المنفرجة . ألوم نفسى على غبائى لأنى لم أتنبه لحقيقة المؤامرة حين رأيته يخجل ويتوجع وأبى يحذره من رفع صوته .. أكتشف فى هذه اللحظة أن الله لم يهبنى الذكاء اللماح الذى يجنب الإنسان المخاطر قبل اقترابها . ولشهور طويلة بعدها أهمس لنفسى كلما تذكرت هذه الواقعة .. آه لو فهمت معنى الأشياء فى الوقت المناسب ؟.

لكن متى استشعر الإنسان اقتراب المخاطر وتفاداها قبل وقوعها !

سرقوني

فوجئت به منذ شهرين يطلب مقابلتي . رنَّ اسمه في أذني رنينا خاصا فتساءلت بيني وبين نفسي : هل هو حقا الصديق القديم أم شخص آخر يحمل نفس الاسم ؟.

كان اليوم يوم اثنين وهو يوم مقابلات قراء بريد الأهرام ، وجدول لقاءاتي فيه حافل ولا يسمح باستقبال زائر جديد على غير موعد فكدت اعتذر عن عدم لقائه لكني خشيت فرصة الواحد في المائة لو اعتذرت ثم تبين فيما بعد أنه الصديق القديم الذي لم أره منذ عشر سنوات ، فطلبت من استقبال الأهرام أن يسمحوا له بالصعود ، وما أن وصل إلى مكتبي حتى خرجت إليه لأتأكد من صدق ظني ، فاذا به هو نفسه الصديق القديم ، فرحبت به مبتهجا ورحبٌ بي ورأى الزوار العديدين ينتظرون مقابلتي فطلب مني بهدوئه التقليدي ألا أشغل نفسي به لأنه جاء بغير موعد وسوف ينتظرني إلى أي وقت من الليل ، فخشيت أن يضيق بوجوده بين المنتظرين ففتحت له مكتبًا مجاورًا لمكتبي ودعوته للانتظار فيه وطلبت له فنجانًا من القهوة وعدت لزواري واستغرقتني اللقاءات .. فإذا بالساعة قد بلغت الواحدة صباحا فنهضت مفزوعًا إلى

صديقى لاطمئن إلى أنه لم ينصرف وفتحت باب المكتب فوجدته مستغرقًا فى مراجعة بعض أوراقه . فى هدوء وبلا أى ضيق ، بالانتظار ، فعدت به لمكتبى واسترخيت نفسيًا .. وبدأنا نتبادل أحاديث الذكريات الجميلة . ونحن طالبان بكلية آداب القاهرة .. والقلب بكر والمشاعر غضة .. وشبابنا يهيىء لنا أن الدنيا بين أيدينا فهو واحد من هؤلاء الأصدقاء الذين اصطلحت على أن أسميهم أصدقاء الروح الذين لا تحتاج معهم إلى كلام طويل .. لأنك تفهمهم ويفهمونك بغير كلام .. واستغرقتنا الذكريات ثم توقفت عن الحديث لحظة لأهيئ له الفرصة ليحدثنى فيما جاء من أجله . وفهم هو بذكائه ذلك فقال على الفور : لم أجئ إليك لطلب شخصى ولا لأى عرض من أعراض الدنيا .. وإنما جئت إليك لأراك لأنك قد « نقحت » على فجأة منذ أيام كما أنك « تنقح » علىّ كثيرًا منذ فترة .. وأحس أنى فى حاجة لرؤيتك .. فلما اشتد علىّ « النقح » جئت لأراك وأجلس معك ساعة من العمر ثم يعود كل منا بعدها لحياته ! .

وسمعت كلامه ، باهتمام شديد ثم وجدتنى أقول له بغير وعى وكأنى أحدث نفسى : لقد كنت أظن أننى وحدى الذى أعانى من هذه المشكلة حتى كدت أشك فى أنها عارض نفسى من عوارض الاكتئاب !.

وسألنى عما أقصده فشرحته له ، واستسلمنا لأحاديث الذكريات ساعة أخرى مرت كلمح البصر ثم ودعنى وانصرف بغير أن نتفق على موعد جديد كعادتنا معًا وربما تمضى سنوات أخرى إن كان فى العمر

مثلها قبل أن نلتق مرة أخرى فهكذا كان حالنا معًا منذ ثلاثين سنة أو أكثر ، ومع ذلك فهو فى مقدمة أصدقائى الحقيقين الذين أعايشهم فى خيالى سواء التقينا بهم أو لم نلتق .. وسواء تزاورنا أو انقطعت بيننا الصلات ، ولى من نوعه باقة جميلة من أصدقاء الصبا والشباب ورحلة العمر الذين فرقت بينى وبينهم المسافات وأحيانًا القارات وقد لا ألتقى بأحدهم أكثر من مرة كل سنة .. وأحيانًا كل عدة سنوات ، ورغم ذلك فهم أصدقاء حقيقيون لى أحس بقربهم إلىّ رغم تفرقهم فى البلاد وأتذكرهم .. دائمًا .. وقد أقف أمام المرآة لأحلق ذقنى ذات صباح فتقفز إلى خاطرى صورة أحدهم وأحس حنينًا غريبًا إليه .. أو أتذكر فجأة موقفًا بينى وبين صديق قديم واستعيد ما جرى بيننا من حوار فيه وربما ابتسمت إذا كان الموقف ضاحكًا .. وربما ضحكت أيضًا ، بل وربما نسيت نفسى فتحول الحوار الصامت داخلى إلى حوار ناطق فنطقت رغمًا عنى ببضع كلمات رددت بها عليه ! ولولا أنى قرأت فى بعض كتب علم النفس أن ذلك وارد فى حياة كل إنسان تلح عليه خواطره ولا عيب فيه لظننت بنفسى الظنون . بل إنى قد أتعرض فى حياتى اليومية لموقف طريف معين فلا يخطر على ذهنى وقتها إلا صديق لم أره منذ عام فأقول لنفسى إنه سيضحك من أعماقه عندما أرويه له ! وحين ألتق به بعد ذلك يكون هذا الموقف هو أول ما أحادثه فيه . وقد اتعرض لموقف آخر فأجدنى أقول لنفسى لن يدرك عمق المفارقة فيه إلا صديقى فلان .. وقد أكون لم ألتق به منذ عامين أو أكثر .

فصلتى بهؤلاء الأصدقاء القدامى .. صلة دائمة ومتصلة سواء ألتقينا كثيرًا أو لم نلتق ، وأصدقائى الجدد الذين كسبت صداقتهم خلال رحلة الحياة يعرفون كل شيء عن هؤلاء الأصدقاء لأنى لا أكف عن الحديث عنهم مع أصدقاء السنوات الأخيرة فإذا ما جمعت بين صديق قديم وصديق جديد فوجىء القديم بأن الآخر يعرفه بل ويعرف أيضًا بعض ذكرياته الخبيثة ! وأصدقاء الصبا والشباب أصدقاء لا يعوضون وكلما سقط منهم واحد سقطت معه ورقة جديدة من أوراق العمر فهم كما قال الشاعر :

وقد تعوضت عن كل بمشبهه

فما وجدت لايام الصبا عوضا

ولا شيء يغذى الروح أفضل من الحب بمعناه الكبير ، حب البشر وحب الأصدقاء وحب الخير .. والجمال .. والمعانى السامية فى الحياة ، واتعس الناس هو من حرم من نعمة الصداقة والقدرة على أن يحب الناس وأن يحبوه ، وكاره الناس لا يستطيع أن يكون صديقًا لأحد ولا يستطيع أن يكسب صديقًا حقيقيًا يكون توءمًا لروحه .

والحكمه الصينية التى تقول أن الرجل الذى لا يعرف كيف يبتسم لا يحق له أن يفتح متجرًا ، تنطبق أيضًا على الصداقة والأصدقاء لأن من لا يعرف كيف يحب الآخرين لا يحق له أن يطلب من الآخرين أن يحبوه ، وأنا لست من المؤمنين مع المتبنى بأن « وخير صديق فى الأنام كتاب » مع أنى ممن يعيشون حياتهم بين الكتب فى معظم الأحيان ،

لكنى أعرف أيضًا أنها لا تغنينى عن الحاجة إلى أصدقاء الروح والعقل والقلب .

ولقد أثارت خواطرى عن أصدقائى القدامى رسالة تلقيتها من قارئة شابة تقول لى فيها أنها تحس من قراءاتها لمقالى « نماذج من البشر » الذى رويت فيه عن أصدقاء خياليين لى أكتشفتهم فى بعض الأعمال الأدبية والتاريخية وأحببتهم أنى أفتقد الأصدقاء فى عالم الواقع .. لهذا فإنى أبحث عنهم فى عالم الخيال !.

ففزعت من هذا الخاطر . ورددت على هذه القارئة المشفقة برسالة قلت لها فيها : إنى والحمد لله لست محرومًا من الأصدقاء ، لكن ذلك لا يمنعنى من هواية البحث عن أصدقاء الخيال فى الآدب .

وتذكرت بعدها كل أصدقائى الذين حالت بينى وبينهم مشاغل الحياة ، والذين تفرقوا بين المدن والدول والقارات ومع كل منهم قطعة من نفسى وصباى وشبابى كأنى أوزوريس الذى مزق إله الشر جسمه ووزعه بين البلاد وشعرت باللوم لهم جميعًا .. ولنفسى أكثر لأننا استسلمنا جميعًا لمشاغل الحياة .. ولم نقاوم هذا الوحش الذى يلتهم ما بقى من أوراق العمر ويصرفنا عن لقاءات الروح القديمة .

فيا أصدقائى القدامى المتناثرين فوق الكرة الأرضية ما بين دسوق والإسكندرية والقاهرة ولندن وباريس وجنيف وأبو ظبى والبحرين والرياض ومع كل منهم قطعة من جسدى الممزق : أعيدوا تركيب أجزائى المبعثرة بسرعة كما فعلت إيزيس مع حبيبها أوزوريس .. وإلا والله العظيم .. أبلغت الشرطة !.

المحتويات

للمؤلف

١ ـ أصدقاء على الورق	الطبعة الأولى	١٩٨٦	(نفد)
٢ ـ يوميات طالب بعثه	الطبعة الأولى	١٩٨٧	
٣ ـ هتاف المعذبين	الطبعة الأولى	١٩٨٨	(نفد)
٤ ـ صديقى .. لا تأكل نفسك	الطبعة الأولى	١٩٨٩	(نفد)
٥ ـ نهر الحياة	الطبعة الأولى	١٩٩٠	
٦ ـ دموع صامتة	الطبعة الأولى	١٩٩٠	
٧ ـ العصافير الخرساء	الطبعة الأولى	١٩٩١	
٨ ـ صديقى ما أعظمك	الطبعة الأولى	١٩٩١	

تحت الطبع

اصدقاء على الورق	الطبعة الثانية
صديقى لا تأكل نفسك	الطبعة الثانية
هتاف المعذبين	الطبعة الثانية

رقم الإيداع: ١٨٣٢ / ١٩٩١
الترقيم الدولي: ٣ـــ ٠٠٣٦ ــ ٠٩ ــ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

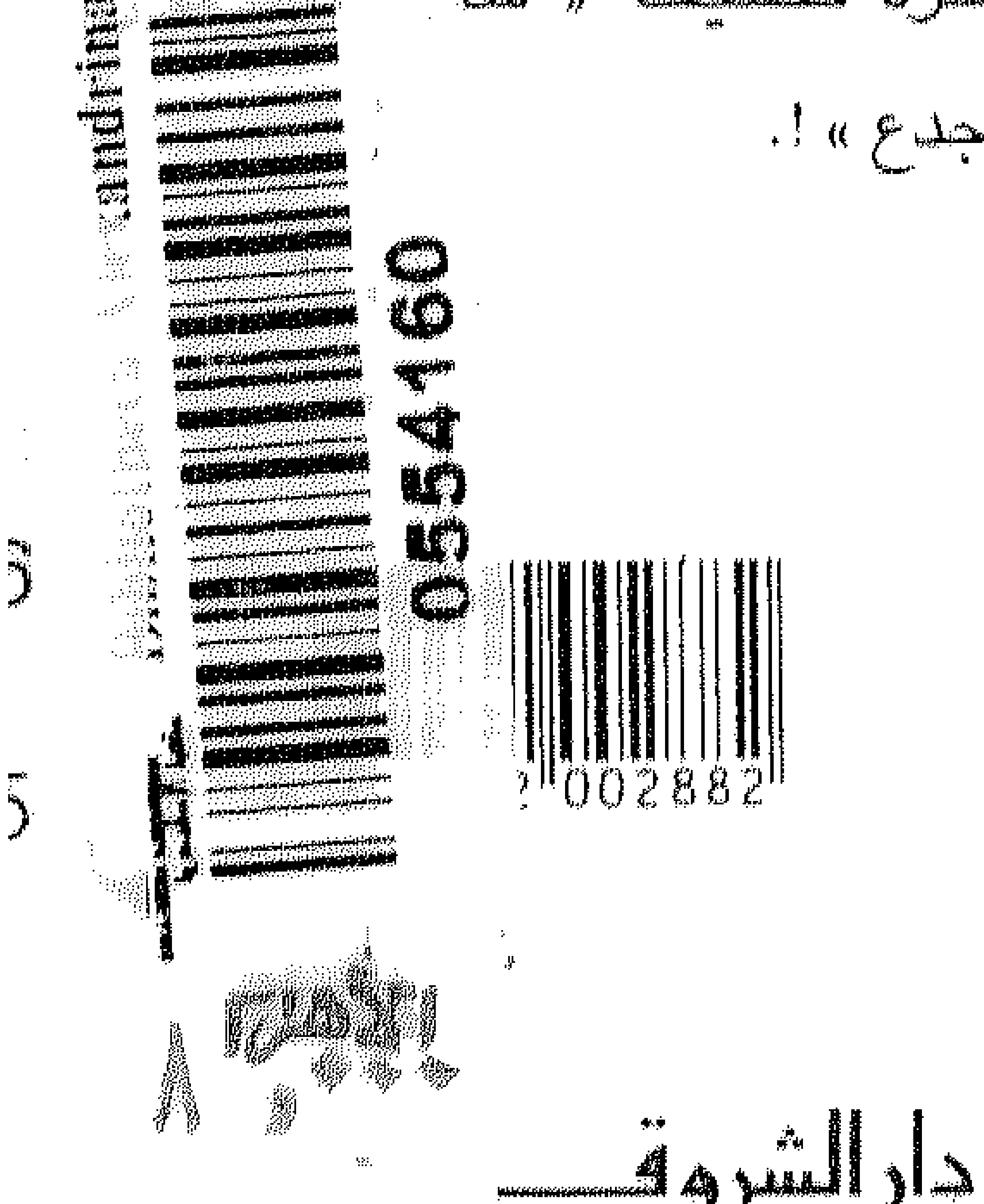


صديقي ما أعظمك

● من لايسمع سوى صوته لا يستطيع أن يحكم بصدق عما إذا كان جميلاً أو منفراً ، ومن لا يسأل الآخرين عن رأيهم فى إمكاناته ويستنير بآرائهم فى تقييمها لن ينجح غالباً فى معرفة حقيقتها وتوجيهها التوجيه السليم

● فأعرف قدراتك جيداً يا صديقى وحاول أن توجهها إلى الطريق الذى تلمع فيه وتنمو ، ولن يتحقق لك ذلك إلا إذا عرفت بدقة نقاط قوتك وتميزك الحقيقية ونقاط ضعفك ، ليس من الضرورى أن يكون كل الناس عباقرة ولا موهوبين وإنما من الضرورى فقط أن يختار كل إنسان لنفسه المجال الصحيح الذى يعبر فيه عن نفسه وتنطلق فيه قدراته فأنت إنسان أولاً وأخيراً والإنسان كما كان يقول شكسبير على لسان هاملت هو أعجب مخلوقات هذا الكون ما أعظمه ... وما أغربه ...

● فما أعظمك يا صديقى إذا عرفت حدود قدراتك وما أضعفك وما أغربك إذا عميت عنها وغرقت فى أوهامك إلى أن تصدمك صيحة منكرة كصيحة « شـ... ياجدع » !.



© دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)